YIYUN LI إيون لي

WHERE REASONS END

حازت
الرواية
جائزة
PEN\Jean Stein

أشياء لا تنقذها الكلمات

عصير الكتب

رواية

ترجمة: ياسمين العربي

إلى دابِنج وجيمس،

وتخليدًا لذكرى فنسنت كين لي (2001–2017)

أيام لا تُقربك، أو لا تريد،

ومسافة تتوهَّم أن تكون أكثر من صمت عنيد،

تجادلني، تجادلني إلى ما لا نهاية،

دون أن تمحو محبَّتك أو تقلِّل من قربك.

تقول المسافة: «تذكَّري الأرض المترامية تحت الطائرة؛

ساحلًا من الشواطئ الباهتة

الغارقة في الرمال، ممتدًّا بلا معالم

إلى حيث تسقط حججي صامتة».

وتقول الأيام: «وتذكَّري

في كل تلك الأجهزة المتكدِّسة، كلَّ الحقيقة،

لكن إحداها تلغي تجربة الأخرى

مثل تقويم قبيح ممهور بتوقيع: "من الأبدية وللأبد"».

ذلك الصوت المهيب لهذه الأصوات المتناثرة

التي علينا أن نكتشفها كلًّا على حدة،

يمكن –بل يجب– أن يُسكَت:

فتتبعثر الأيام والمسافة

للأبد، ومن ساحة المعركة الهادئة.

- «**جدل**»، **إليزابيث بيشوب**

المحتويات

الفصل الأول

لا تدعي أمي العزيزة تجدنا 11

الفصل الثاني

أضلتني الأيام 19

الفصل الثالث

المتسلِّلون 29

الفصل الرابع

ثم انفَكَّ الزرُّ 41

الفصل الخامس

صائدو المطر 51

الفصل السادس

ما أجمله من خريف 59

الفصل السابع

الكثير من النوافذ والكثير من الزهور 69

الفصل الثامن

العدو المثالي 79

الفصل التاسع

للأبد 89

الفصل العاشر

أضلتني الحقائق 99

الفصل الحادي عشر

أتمنى لو كنتَ هنا مجددًا 111

الفصل الثاني عشر

قصور ذاتي 121

الفصل الثالث عشر

بعد الزمن 133

الفصل الرابع عشر

العزاء 143

الفصل الخامس عشر

لحظات لا تتكرر 153

الفصل السادس عشر

الأجوبة لا تحلِّق في الهواء 165

الفصل الأول

لا تدعي أمي العزيزة تجدنا

قال نيكولاي: «أمي العزيزة».

دُهِشتُ؛ كان يناديني هكذا فقط حين لا أكون منتبهة، لكنني الآن كنتُ متشبثة بالانتباه، لأنه الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقدِّمه له.

قلت: «لم أخبرك يومًا كم أحببتُ أن تناديني بذلك».

- وماذا كنتِ تنادين جدتي؟

قلت: «عندما كنتُ في عمرك، كنت أناديها ماميتا».

قال: «كان ذلك محببًا».

قلت: «عليك أن تختار الاسم الصحيح عندما تجد صعوبة في استدعاء المودة لشخص ما».

- المودة، يا له من لفظ غريب.

- هل يمكن للمرء أن يبالغ في التودد؟

قال نيكولاي: «يا للمفاجأة أن أراكِ هنا».

قلت: «أحدنا هو من جعل هذا يحدث».

- ألومكِ على ذلك.

ضحكتُ، وقلت: «هذا دَيدَنُك». ثم شرحتُ له كيف تجرأتُ واخترقتُ الطريق كي أصل إلى هنا.

- أول ما قمتُ به أنني جرَّدتُ الزمن من معناه؛ أستطيع أن أكون في السادسة عشرة مثلك، أو في الثانية والعشرين، أو السابعة والثلاثين، أو الرابعة والأربعين.

قال: «أُفضل ألا تكوني في السادسة عشرة».

- ولماذا؟

- لا أريد أن أشعر بالالتزام بمصادقتكِ.

- يمكننا أن نظل أصدقاء حتى لو كنتُ في عمر آخر.

- لا أحب أن أصادق من هم أكبر سنًّا. ثم إنَّ المرء لا يستطيع في الحقيقة أن يكون صديقًا لأمه.

- ألا يستطيع حقًّا؟

قال نيكولاي: «لا. جوهر النضج هو أن تنجح في لعبة الغميضة مع أمك».

قلت: «جميع الأطفال ينتصرون فيها. الأمهات سيئات في البحث».

- ولكنكِ وجدتِني.

قلت: «ليس بصفتي أمك. ألا ترى اللافتة هناك (مع أنني كنت أعلم أنه لم يكن ليراها، إذ علَّقتها وأنا أحدثه): «*لا تدعي أمي العزيزة تجدنا*»».

- وما أنتِ إذن؟

- أرنب هارب مثلك. فكيف تظن أننا وصلنا إلى هنا؟

هنا، وأنا أراقب جاري يغادر، وصندوق من كعكات الشوكولاتة الطازجة بين يديَّ، وجدت نفسي في مكان اسمه اللامكان. تقول القاعدة إنَّ هناك غدًا وهناك أمس، لكن لا يوجد أبدًا اليوم.

لم أكن الملكة البيضاء، في حكاية «أليس في بلاد العجائب»، التي تضع القاعدة، ولا أليس نفسها التي ترفض أن تعيش وفقها. كنتُ أمًّا عاديَّة، تَحزن على طفلٍ عادي، فُقد بسبب مأساة عصية على الفهم. بالفعل، هناك ثلاثة أقوال نمطية جاهزة. بإمكاني أن أشن حربًا شخصية ضد كلٍّ منها. الحزن، بالإنجليزية Grieve، من اللاتينية gravare أي يُثقِل، وgravis أي ثقيل وخطِر. أي أم يمكن أن تعتبر الحياة في الفراغ الذي خلَّفه طفلها عبئًا؟ العصيان على الفهم، بالإنجليزية Explicate، من اللاتينية ex (إلى الخارج) + plicare (يطوي)، أي يكشف أو يفك طي ما. لكن وصف فعل نيكولاي بأنه عصيٌّ على الفهم يشبه وصف طائر مهاجر ينتهي به المطاف تائهًا في قارة جديدة. من ذا الذي يمكن أن يجزم أنَّ ذاك الشارد لا يملك سببًا ليغيِّر مسار طيرانه؟ لا شيء عصيٌّ على الفهم بالنسبة لي، غير أنني لا أريد أن أفسِّر، فوظيفة الأم أن تَطوي لا أن تفك الطي.

المأساة: «تلك حقًّا كلمة عصية على التفسير. ما معنى أصل الكلمة اللاتيني الذي يعني حرفيًّا أغنية الماعز؟».

سألت نيكولاي: «هل كنتَ لتسميها مأساة؟». وفي الفترة الفاصلة بين حديثي مع جاري وعودتي إلى هذه الصفحة، خطر لي أنَّ العالم قد يظن أنني بدأت أفقد اتزاني.

لكني لم أكن كذلك. ما كنتُ أفعله هو ما كنتُ أفعله دائمًا: كتابة الحكايات. في هذه الحكاية، يلتقي الطفل نيكولاي (ولم يكن ذلك اسمه الحقيقي، بل اسمًا اختاره لنفسه بين أسماء كثيرة استخدمها) أمه العزيزة في عالم غير محدد في الزمان أو المكان. لم يكن عالم آلهة أو أرواح. ولم يكن عالمًا حلمتُ به؛ حتى أحلامي كانت عادية ومقيَّدة بأرض الواقع. كان عالمًا مصنوعًا من الكلمات، الكلمات وحدها. بلا صور، بلا أصوات.

قال: «أتسمينها مأساة؟».

- سأكتفي بالقول إنه أمر حزين. حزين إلى حد أنني لم تعد عندي أي صفة أخرى لأضيفها.

قال: «الصفات هي متعتي الآثمة».

قلت: «أعرف. قد تضطر إلى أن تزوِّدني ببعضها». تساءلتُ أي كلمة، يا تُرى، كان سيختارها ليصف **لي مكاني**؟ ثم خطر لي أنه لن يمنحني كلمة أصلًا. فمهما بلغت حريتي في هذا العالم، لم أستطع أن أغيِّر حقيقة أنني أنا من رتب لهذا اللقاء. لم يكن خياره، بل كان محدودًا بقدرتي. لم يكن عندي كلمات سوى الحزن.

قال نيكولاي: «أتريدينني أن أشعر بالحزن على نفسي أيضًا؟».

فكَّرتُ في السؤال. ولم أعرف الجواب.

قال: «لستُ حزينًا كما تظنين. لم أعد كذلك».

لم أكن بحاجة إلى أن يخبرني، لكن يا طفلي، ألن يكون جميلًا لو أنك ما زلت قادرًا أن تحزن كما أحزن، لأنك حينها ستكون قادرًا أن تشعر

بأشياء أخرى كما أشعر أنا أيضًا؟ لكنني لم أقل له هذه الكلمات. بدلًا من ذلك، رويت له قصة عن والدة زميلة لي في المدرسة الثانوية.

كانت المرأة قد نشأت في جزيرة بإندونيسيا. في يوم ما، تسلَّقت شجرة جوز هند لتقطف ثمرة لأختها الصغيرة، فسقطت من أعلى الشجرة. لم تمت، لكنها فقدت معظم سمعها في الحادث. لاحقًا أصبحت عازفة بيانو ومدرِّسة في معهد موسيقي. كان لا بد أن تصرخ في أذنها لتسمعك. لم أرها يومًا تعزف أو تُدرِّس. كان لغزًا عندي كيف استطاعت أن تفعل أيًّا منهما.

قال نيكولاي: «كان بيتهوفن أصم أيضًا».

- لكن ذلك لم يكن إلا في أواخر حياته. أما هي فكانت صماء منذ السابعة.

- هل كانت حياتها أكثر مأساوية من حياة بيتهوفن؟

قلت: «لا، بالطبع لا. والسبب الذي جعلني أقص عليك القصة هو أنني تذكرت الآن أنها كانت تحبني كثيرًا».

وبينما كنت أحكي، عادت إليَّ تفاصيل أخرى عن المرأة وابنتها، لأول مرة منذ ثلاثين عامًا. كانت صديقتي فتاة جامحة، متمرِّدة في السادسة عشرة، بقَصَّة شعر قصَّتها لنفسها، غير متساوية من الخلف والأمام. فشلت في امتحان القبول الجامعي، وتباعدت طرقنا. سمعت لاحقًا أنها أصبحت مصوِّرة حرة.

كانت والدة صديقتي تحب أن تُبقيني بجوارها، وتُقدِّم لي شرائح حمضياتٍ مغموسة بالسكر وشايًا حين نزور شقتها جماعة. لم نكن

نتحدث كثيرًا، لكننا تبادلنا الابتسام مرارًا. كانت امرأة غريبة الأطوار، أطول من ابنتها بنصف رأس، مع أنَّ ابنتها كانت من أطول البنات في صفي. وكانت صامتة بلا حول أمام ابنتها، التي كانت كثيرًا ما تمزح قائلة إنني رفيقة مثالية لوالدتها.

قلت: «لم تكن أم صديقتي هذه وحدها. في ذلك الوقت، كان جميع آباء أصدقائي وأمهاتهم يحبونني».

قال نيكولاي، وفي صوته شيء من الاعتداد: «أنا لست محبوبًا من كل آباء أصدقائي».

قلت: «أعرف. وأنا معجبة بك من أجل ذلك. ومع ذلك، فإنهم جميعًا يبكونك».

قال: «لم يعد الأمر مهمًّا الآن».

لو كنتُ أنا في السادسة عشر، لاعتبر كثير من آباء أصدقائي الأمر مأساة غير مفهومة. لكن تلك المعرفة لم تكن لتجعل العالم أقل كآبة بالنسبة إليَّ. لم أفكر في والدة صديقتي منذ عقود. عدا بعض الحقائق القليلة عن حياتها وابتسامتها، لم أكن أعرفها حقًّا، ولم تكن تعرفني.

قلت: «أظن أنك على حق. لكنني ما زلت أتمنى لو عرفت كم يفتقدك الكثيرون».

قال نيكولاي: «أمي (وكادت الطريقة التي قالها بها أن تُبكيني). أمي، أنتِ تعرفين أنَّ هذا مبتذل».

- وماذا لو أمكن إنقاذ الحياة بالابتذال؟ ماذا لو أنَّ الحياة لا تُعاش إلا بها؟ مكان ما في الغد، ومكان ما في الأمس، لكن لا يوجد مكان ما في اليوم. بل في أرض الابتذال.

قال نيكولاي: «لقد وعدتِ بأنكِ ستفهمين».

لقد وعدته بالفهم. ووعدته بأشياء أخرى أيضًا: بيت في الغابة، مطبخ تغمره الشمس، وصفات جديدة كثيرة، وحقوق كتبي (قال لي وهو في التاسعة: «بعد أن تموتي أريد حقوق الكتب التي كتبتيها، لكن فقط الكتب الجيدة»). ومع ذلك، كانت هذه الوعود واهنة مثل الحب، إذ إنَّ الوعد والحب معًا مرساتان في أرض الابتذال.

قلت: «لكن هذا لا يغيِّر كم أنا حزينة».

- ولو كنتِ مكاني، أكنتِ تودِّين أن يظل الناس حزانى طوال الوقت؟

كنتُ شبهك يومًا، ولهذا سمحتُ لنفسي أن أبتكر هذا العالم كي أتحدث معك. الحزن يمكن العيش معه، لكنه حصن عاجز أمام عمى المأساة. فلا أم ولا ابن يمكن أن يكونا معاصرَين في عمر واحد، ولهذا لم تستطع ذاتي ذات الستة عشر عامًا أن تصادق ذاتك. كلٌّ منا رفض أن يُنقَذَ، فلم نُنقِذ أحدًا في شبابنا. وحين كبرتُ -وكنتَ لا تزال شابًّا- كنتُ الملكة البيضاء التي وضعت اللافتة: «*لا تدعي أمي العزيزة تجدنا*». وكنتَ أنت الأبرع في الاختباء.

الفصل الثاني

أضلتني الأيام

قلت: «لدينا الآن قواعدنا الخاصة. أليست هذه خطوة نحو مكانٍ ما؟».

لم أقل كيف جعل ذلك التنفس ممكنًا. فالحياة، إن لم تُعَش، تستمر بأفعالٍ تلقائية، والتنفس واحد منها، محتوم لا فكاك منه. ذات مرة، في حفلة، سأل أحدهم: «ما الصفات التي تثير نفورك في الآخرين؟». قلت: «عدم الدقة».

قال نيكولاي: «كأننا لم نعش دومًا وفق قوانيننا الخاصة». ونبرتُه، كما تخيَّلتها، كانت هي نفسها حين قال لي مرةً -بعد أن تساءلتُ عما قد تفكر فيه الأمهات الأخريات حيال ثيابه غير المناسبة لحفل موسيقي كان ذاهبًا إليه- أنتِ أصلًا لا يهمُّكِ ما يظنه الآخرون بكِ.

هل عشنا حقًّا دومًا وفق قوانيننا الخاصة؟ لكن ما حيَّرني أكثر من السؤال هو الزمن الذي استعملناه في كلامنا.

طُرحت أسئلة، وقُدِّمت نصائح، بشأن الزمن الذي كنتُ أتحدث فيه عن نيكولاي. لكن ما الذي يجعل «كان» يختلف عن «يكون»، أو «قد

كان» عن «سيكون»؟ هذا العالم الذي نصنعه عالم خارج الزمن، لغته بلا أزمنة.

قال: «القواعد وُجدت لتُكسَر».

قلتُ: «والمواعيد النهائية وُجدت لتُفَوَّت». كانت كلمة الموعد النهائي تسحرني دائمًا، كلمة تصل بين الزمن والمكان والموت بمثل هذه القطعية المطلقة.

قال: «الوعود وُجدت لتُخلَف».

قلتُ: «والحب وُجد ليتلاشى». عبارة قابلة للنقاش، لكنه اختار ألا يجادل. الحب كانت الكلمة التي استعملناها في وداعه الأخير، هو يعرف أنه نهائي، وأنا أستشعر بأنه كذلك. لكن بين الاستشعار والمعرفة سبع ساعات وأربع ولايات. ولم أسجِّل إلا اليوم أنَّ الناس كثيرًا ما وصفوا الفقد في رسائل تعازيهم بأنه لا يُدرَك غوره. أما البُعد في لحظة الفقد فكان قابلًا للحساب: «189200 قَامَة». (وما أهمية أنَّ القامة لم تَعُد تُستعمَل لقياس المسافة بين هنا وهناك؟ فالتقادُم يعني أن يشيخ الشيء، أما الموت فلا يُعفيه الزمن).

مبهم، كيف نقيس غور الزمن؟ من لحظةٍ إلى... هل يمكن أن يكون إلى الأبد هو الطرف الآخر للمدى؟

قال نيكولاي: «لكن لِمَ يُقلقكِ الأمر إذا كنتِ تصرِّين أنَّ الزمن لم يَعُد ينطبق علينا؟». كانت سَعةُ العلم مُسلَّمًا بها في هذا العالم الذي نلتقي فيه الآن، لكنني تركتُه وحده يدَّعيها. «أنتِ تخرقين قواعدكِ أنتِ».

قلتُ: «لأن الزمن ما زال يُقيِّدني ويُربكني».

قال: «مسكينة أنتِ ضللكِ الزمن».

قلتُ: «أضلني! لم أستعمل هذه الكلمة من قبل في كتابتي».

- لا تؤاخذيني، لكن حصيلتكِ اللغوية محدودة.

قلت: «لحسن الحظ أنَّ عقلي لا تحُده مفرداتي». (وفي داخلي استعملتُ النبرة نفسها التي استعملتُها يوم قدَّمني نيكولاي إلى صفِّ الروضة: «أمي مهاجرة، لذا تتحدث الإنجليزية بلكنة». قلتُ له: «شكرًا يا عزيزي»، ومع ذلك أعتاش من الكتابة بالإنجليزية).

لاذ بالصمت. فهمتُه. فمَن يرغب أن يسمع أمه تتفاخر بنفسها؟

وسكتُّ أنا أيضًا. كنت في عربة مترو الأنفاق. قبل بضعة أسابيع فقط كان نيكولاي قد سألني: «هل المكان صاخب دائمًا هنا تحت الأرض؟». كنا في طريقنا لمقابلة صديقتي، كما أفعل اليوم. قال حينها: «لا أستطيع العيش في نيويورك. لا أستطيع أن أخاطر بفقدان سمعي».

وحين تذكَّرت كلماته الآن خطر لي أنني لم أنتبه يومًا إلى الضوضاء. كنت أعلم أنني لا أعاني حساسية للألوان، ولكن تجاه الأصوات أيضًا؟

قلت: «كيف عشتُ عمياء وصمَّاء هكذا؟». لعلَّه كان قد اكتسب معرفة تفسِّر لي ذلك.

لكنه لم يُجب. كان يصغي إلى رجل وامرأة يقفان بجانبي. لم أستمع لقصتهما منذ البداية. كانا يتحدثان عن فتى انتحر في الأسبوع الماضي، ابن أحد معارفنا المشتركين.

قال الرجل: «في السابعة عشر من عمره. هل تُصدِّقين؟».

قالت المرأة: «يا إلهي. قرأت الخبر في الصحف. خطر ببالي أنه حفيد شخص ما».

قال الرجل: «تخيَّلي أن تستيقظي على تلك المكالمة الهاتفية. كيف يمكن لإنسان أن يصدِّق أنَّ الأمر حقيقي؟».

انتظرت أن يقول نيكولاي شيئًا. كنت أعلم أنه لن يدافع عن الفتى، فلكلٍّ منهما أسبابه لاتخاذ قرار بدا متشابهًا فقط في نظر من يبحث عن تفسير. لكنني تساءلت هل سيقول شيئًا مدهشًا، كأن يقول ألَم يكن تعاطفُ الناس وبلادتُهم شبيهيْن بيدين تفركان بعضهما إثر كارثة تخصُّ آخرين؟ أو هل ربما يسخر منهما نيابة عني؟ كأن يقول: «تعرفان من اللحظة الأولى أنَّ الأمر حقيقي؟». كيف يمكن لأحد أن يبدأ سؤالًا بتلك العبارة السخيفة: «كيف يمكن لأي إنسان؟».

لكنه لم يقل شيئًا.

قلت، بعدما غادر الرجل والمرأة السيارة: «أليس غريبًا أن يكون أول ما فكرت فيه هو أنه حفيد شخص ما؟».

قال نيكولاي: «لقد رُزقت للتو بأول حفيد لها».

كانت تلك المعلومة قد فاتتني. دخلنا النفق. وتساءلت إن كان الضجيج لا يزال يزعجه.

قال: «أسمعكِ جيدًا».

قلت: «آه. هناك أمر واحد يقلقني. لا أستطيع أن أعثر على كل تلك القصائد التي كتبتَها، أو التي سأكتبها».

وقلتُ: «لقد أثر فيَّ ذلك». ثم شرحت له أنَّ أحدهم سألني إن كان لديَّ ما يكفي من قصائده لأجمعها في كُتيِّب.

قال: «كُتيِّب، كلمة تبدو صغيرة في أذنيَّ. كأنكِ ستصنعين -ماذا كانوا يسمونه في الزمن القديم؟- مُصغَّرًا لعقلي». كم أحببت أن يظل طموحه وغروره شابَّين مثله.

قلت: «سيكون يدوي الصنع، كما كنت تفعل في تجليد الكتب».

- تلك الدفاتر صفحاتها بيضاء.

قلت: «لا يجب أن تكون كل الكتب صفحاتها بيضاء. الجميع متفق على أنك شاعر جميل».

قال: «ها! أتعنين تلك الخربشات التي أرسلتها إليكِ وأنا طفل؟ أنتم لا تفهمون الشعر».

قلت: «أتعنيني أنا، أم تعني الناس بصفة عامة؟».

قال: «أعنيكِ أنتِ يا أمي».

ربما كان نيكولاي المراهق الوحيد ذا الستة عشر عامًا الذي لا يزال ينادي أمه بكلمة أمي.

قال: «لا تؤاخذيني، لكن ذوقكِ لا يُعوَّل عليه».

ضحكتُ، إذ كان قد قال العبارة نفسها يوم كنا في متجر بإدنبرة، نختار له أوشحة من الصوف والكشمير.

قلت: «أصبحت تلك الأوشحة ملكي الآن».

- مثل الأشياء التي تُمرَّر إلى مَن هو أكبر؟

- ألا تمانع أن أرتديها؟

قال: «لم أرتدِها بعد، لذا فهي ليست ملكي. لكن ما أمانعه هو أن تقرئي أنتِ أو أي أحد آخر شِعري».

أخبرته عن معرض فيليب لاركن الذي شاهدته في إنجلترا. كانت هناك أغلفة دفاتر يومياته، أما ما بداخلها فقد نُزع وأُحرق في الموقد في اليوم التالي لوفاته.

قال نيكولاي: «أؤيِّد ذلك مثلكِ تمامًا».

قلت: «السر هو أن تجد شخصًا تثق به وتجعله يتعهد بأن يعيش أطول منك».

قال: «لكني لا أستطيع أن أئتمن أحدًا على شِعري».

فكَّرتُ في كل مَن سيعيشون أطول منه. هل أثق بأحدٍ منهم؟ هل أثق بنفسي؟

قال: «ليس ذنبكِ».

قلت: «إن كنت تقصد بالذنب ارتكاب خطأ، فلا، ليس ذنبي. لكن أصل الكلمة هو الخيبة والخداع».

انتظر نيكولاي أن أواصل الحديث. لم يكن صبورًا عادةً في الإصغاء إليَّ.

قلت: «مَن ذا الذي يستطيع أن ينفي أنَّ الحب لا يعني أيضًا الخذلان والخداع؟».

قال: «لكن الذين يُخيِّبون الظن أو يخدعون لا يفعلون ذلك دومًا بدافع الحب».

هذا يا ولدي لا يخفف عن قلب الوالد. فلو أنَّ الوصف الوظيفي للأبوة قد تضمَّن شرط الخذلان والخداع، فكم منا كان ليشرع فيها بأمل بريء من الذنب أصلًا؟

قال: «أم بذنبٍ يائس؟ لكنكِ قررتِ أننا في هذا العالم لا نلتزم بالقوانين التي تقيِّد علاقة الطفل بوالديه».

قلت: «إنَّ الخط الفاصل بين خداع الذات وقوة الإرادة كثيرًا ما يكون ضبابيًّا».

قال: «وقد ورثت كليهما عنكِ، أليس كذلك؟ ولكنه ليس خطأكِ».

كانت قوة الإرادة من صفاته التي لن أنساها أبدًا. عندما كان في الصف الخامس عانى الأرق. وفيما بعد قال لي، ونحن نتجادل، إنَّ ما اقترحناه لم يكن ذا جدوى. قال: «كنت أنام في التاسعة وأفرض على جسدي أن يظل ساكنًا، وعلى عقلي أن يكفَّ عن التفكير. هكذا تغلَّبتُ على أرقِي، وهكذا دائمًا سأحل مشكلاتي. لا أستطيع أن أعتمد على أحد سوى على إرادتي».

قلت: «إن الخط الفاصل بين قوة الإرادة والغرور مشوش أيضًا».

قال: «ذلك، للأسف، لا يمكن تغييره. فبمجرد أن تمنح الإرادة شيئًا من القوة، تُصاب بالعمى. تمامًا كما أنَّ أصحاب السلطة يتضخمون حتى لا يعودون قادرين على رؤية أصابع أقدامهم».

- ومتى إذن تُبصر الإرادة؟

قال: «الإرادة لا عيون لها لترى، التردد هو الذي له عيون، بل عيون كثيرة، مثل العملاق آرجوس في الأساطير الإغريقية».

كان نيكولاي يُلقبني دائمًا بالمترددة لأنه كان يحب وقع الكلمة.

قلت: «إذن لا يجوز أن ندع الإرادة تقودنا».

قال: «ليس باستطاعتكِ».

- لكن كيف للمرء أن يعيش إن لم يكن بقوة الإرادة، فيومًا بعد يوم بعد يوم بعد يوم يختبئ طفل عن عينيه؟ ثم قرأت له مقطعًا من قصيدة للاركن:

«ما غاية الأيام؟ الأيام هي حيث نحيا.

تأتي، توقظنا، مرة بعد مرة».

وهي لنسعد فيها: « فأين يمكن أن نحيا إن لم يكن في الأيام؟».

قال نيكولاي: «الأيام ليست وحدها موضع حياتنا».

قلت: «الزمن ليس وحده موضع حياتنا، بل الأيام».

- لم أعد بحاجة إلى أيامٍ كي أعيش الآن.

قلت: «أما أنا فما زلت مضطرة إلى أن أحيا في الأيام».

قال: «أنا آسف».

الأيام: «أعذب ما نملكه، تتطلب مشاركة تلقائية. الأيام التي رفضها كانت ستأتي، واحدةً إثر الأخرى. لا حلفاء لي ولا أعداء، ستنتظر كل صباح بجلدٍ لا ينفد، وبلا مبالاة مطلقة، لترى هل تجعلني صديقةً لنفسي أم عدوةً لها».

قلت: «لا تعتذر أبدًا على ما تركتَه يرحل».

الفصل الثالث

المتسلِّلون

قلت: «كنتُ أحاول أن أجد تلك القصيدة لإليزابيث بيشوب. تذكُر؟ تلك التي كتبتَ عنها؟».

قال نيكولاي: «لا أذكر».

قلت: «في الأسبوع الأول من الصف السادس. كتبتَ أنَّ القصيدة جعلتك تُدرك أنَّ الذاكرة حوَّلت الأماكن التي سافرنا إليها إلى ألوان مختلفة بالنسبة لك».

قال: «رمادي مائل إلى البنفسجي لكرواتيا».

- نعم!

- وذهبي وفضي لباريس.

قلت: «وكان اختيارك غريبًا لبرلين، وأغرب لبكين. ما كانت ألوانهما؟».

- لا أذكر.

- وأي قصيدة كانت؟

- لا أذكر ذلك أيضًا.

أي قواعد تحكم معرفته وتذكُّره الآن؟ أسابيع وأنا أقرأ قصائد بيشوب، لكن لم تشبه أيًّا منها القصيدة المنشودة. ألا يستطيع تسميتها لأنه متحرِّر من الذاكرة؟

قال: «متحرِّر. لقد اخترتِ الكلمة الخطأ».

بحثتُ عن الكلمة. لا بد أنه اكتسب معجمًا كاملًا من المعرفة.

- لو كانت الذاكرة قيدًا، لَحَسَدَني كثير من الناس.

- لماذا؟

- لأن كل يوم يعيشونه يجعل القيد أشدَّ وأصعب كسرًا من اليوم السابق.

ماذا لو كان ذلك هو ضرورة الحياة ذاتها؟

قلت: «ومع ذلك، ألا تستطيع أن تعرف القصيدة حتى إن لم تتذكرها؟».

- الأمر لا يعمل بالطريقة التي تتخيَّلينها.

- ولماذا؟

- لأنها شيء من الماضي، وبهذه الدرجة من التحديد... كلا، فالمعرفة لا تتعلق بذلك.

- بعبارة أخرى، فالعِلم لا يُطبَّق بأثر رجعي. كنتُ أقاوم الرغبة في أن أقول: «حيث أنت».

- المعضلات موجودة في كل مكان، حيثما كنتِ.

معضلتان: افتراضان اثنان. العِلم الكلي والذاكرة: كلاهما موضع تساؤل.

قلت: «وماذا لو اضطر المرء إلى الاختيار؟».

- الذاكرة مثل لون العينين، لا تنفصل عنكِ أبدًا.

- لكن للمرء أن يُغمض عينيه.

- ذلك لا يغيِّر لون عينيكِ. أما العِلم الكلي فهو أشبه بالقدرة على كتابة الشعر؛ لا يولد به الجميع.

سألت: «أوَلا يمكن اكتسابها؟».

- وهل تستطيعين كتابة الشعر؟

أمعنت التفكير في السؤال، ثم قلت مستسلمة: «لا. لكنني أحب أن أستخدم الراوي العليم في السرد الروائي».

- ها! هذا يُشبه أصدقائي الذين يحضرون بسكويتًا جاهزًا من المتجر إلى سوق المخبوزات الخيرية.

قلت: «أشعر بأنَّ حكمك غير عادل».

قال: «في العِلم الكلي كمال لا تملكينه ولا تفهمينه».

- أو ربما أنني لا أومن بالكمال أصلًا.

- من السذاجة أن تزعمي أنكِ لا تؤمنين بشيء لا تفهمينه.

فكرتُ في الأشياء التي لا أفهمها. في هذه الأيام، كانت تعود بي دومًا إلى نيكولاي. قبل الفجر، تذكَّرت أغنية صغيرة ألَّفها حين كان في السادسة، وكان أخوه الصغير جيه. في الثالثة، وكانا يغنيانها معًا في أثناء الاستحمام:

سمكة الحظ السعيد

سمكة الحظ السعيد

سمكة الرسالة في القارورة

سمكة الرسالة في القارورة

سمكة البطة المطاطية

سمكة البطة المطاطية

قال نيكولاي: «أنتِ تعلمين أنها لم تكن تعني شيئًا، أليس كذلك؟ لقد اخترعتها فقط لنسلِّي أنفسنا، لأنكِ لم تكوني تُخرجيننا من حوض الاستحمام في الوقت المناسب».

فكَّرت: «*وكيف لي أن أعلم أنها لا تعني شيئًا، بينما الشيء واللاشيء يسيران الآن جنبًا إلى جنب، كتوأمين متطابقَين يرتدي كلٌّ منهما ثياب الآخر؟*» صارت الأغنية، بعد أن دارت في رأسي وقتًا طويلًا، عصيَّة على الفهم. وكل ما يتعذَّر تفسيره يبدو كأنه يملك منطقًا باطنيًّا خاصًّا به.

قال: «حتى لو كان لها معنى، فلماذا لا تحوِّلين ذلك المعنى إلى لا معنى؟».

- كيف؟

- أوه، كنت أظن أنَّ الكبار بارعون في ذلك. فإذا سألك أحدهم: «هل هناك خطبٌ ما؟»، فلِتكوني مهذَّبة ولبقة تجيبين: «شكرًا لسؤالك،

لكن كل شيء على ما يرام». ولا تقولي: «شكرًا لسؤالك، لكن لا شيء على ما يرام». فالناس سيفزعون لو قلتِ هذا. وإذا فزعوا، فماذا ستقولين لهم؟ ستقولين: «أوه، رجاءً لا تقلقوا، فمع أنَّ لا شيء على ما يرام، فلا شيء باقٍ أيضًا».

قلتُ متذمِّرة: «إنك تجعل رأسي يدور. عليَّ أن أدوِّن كلماتك لأفهم معناها».

قال نيكولاي: «أنتِ سخيفة، مثل معلِّمي الإنجليزية الذين يطلبون منا دائمًا أن نفتِّش عن الاستعارات في النصوص».

فقلنا معًا: «**الحياة لا تُعاش بالاستعارات**». كان قد سمعها أول مرة حين اضطر إلى أن يتحمَّل محاضرتي لخمس ساعات. كان في الرابعة، وقد تمدد تحت طاولة طويلة، يتدحرج ببطء لكن بإصرار من طرفها إلى الطرف الآخر ثم عائدًا. وفي اليوم التالي قال لي إنني كنتُ قاسية حين قلت: «أحيانًا لا يكون الخطأ في القصة، إلا أنها مملة».

سألته: «عندما ألَّفتَ تلك الأغنية، هل كان في حوض الاستحمام بطة مطاطية أم سمكة مطاطية؟ أم كلتاهما؟».

قال: «لا هذه ولا تلك. كيف تسمحين لخيالكِ أن يكون بهذه المحدودية؟».

قلت: «ليست المسألة خيالًا، بل يريد المرء أن يتأكد من أنَّ التفاصيل صحيحة».

- ولماذا يهمُّ ذلك؟

فكَّرت: «صحيح. أيًّا كان، *فتلك الأغنية أبقتني يقِظة، لكن متوجسة من أن أنهض لأواجه اليوم*».

قال نيكولاي: «هل تذكرين ما كنتِ تقولينه لي دائمًا؟ النِّسْبة، ثم النِّسْبة، ثم النِّسْبة».

قلتُ له بدوري ذات يوم: «الصبر، ثم الصبر، ثم الصبر، والمنظور، ثم المنظور، ثم المنظور».

فردد عليَّ إحدى الأحجيات اللفظية الإنجليزية الشهيرة.

ضحكتُ، ولطالما أدهشني أنه قادر على قول أي شيء بأقصى سرعة بشرية ممكنة.

قال: «بل بأقصى سرعة لا بشرية ممكنة، ذاك ما ينبغي أن تقولينه الآن».

- بالطبع لا.

قال: «ولِمَ لا، ما دمتِ تبالغين في الحرص على الدقة؟ فالحال المستعمَل في غير موضعه أسوأ من الحال نفسه».

اعتدت على حذف الأحوال من كتاباته. كنت أتوقع أن تستمر مشاحناتنا، لكني لم أكن أتوقع أن نتشاحن حول الحال في اللغة.

قلت: «أرجوك، كفى».

قال: «حسنًا».

قلت: «قصدتُ أننا نملك الكثير لنقوله لبعضنا، بدلًا من الجدال حول تفاصيل صغيرة».

- أَلدينا حقًّا؟

هل أكون متعجرفة إن ظننت أنَّ حديثنا لم ينقطع رغم تقلبات الحياة ونزواتها؟ إنَّ ما بيننا أضيق من الحياة ذاتها؛ أي اضطراب كفيل بتشتيته. وما هو هذا أصلًا؟ لا هو حلم، ولا هلوسة، ولا هروب معًا، ولا هروب منفصل، بل اصطدام متكرر، ولقاء لا ينقطع. إيجاد سبيل لنوجد في الصعب والمستحيل! أترى الأمر كذلك بالنسبة له أيضًا؟

قلت: «أنا آسفة. لم أقصد أن أقطع حديثك».

ظل صامتًا. لقد ارتكبت خطأً. حتى الجدال مجددًا لمجرد الجدال كان أفضل من الصمت المميت.

قلت محاولةً استعادة انتباهه، لكنه لم يتكلم: «أيُّ خللٍ يعتريني الآن؟ هل هكذا تفقد الأم طفلها؟ هل هكذا يفقد الإنسان أي إنسان آخر، بعدم فهم خيانة الكلام، أو -والأسوأ- بالاعتقاد أنه يمكن التغلب على ذلك بالدقة؟ الصمت هو أفضل دفاع وأفضل هجوم. ماذا يحدث عندما يرد المرءُ الصمتَ بصمتٍ؟، مثل حدَّادٍ في قصة صينية يتفاخر بأنه صبَّ أقوى درع سيحصِّنُهُ من أحد الرماح، وتفاخر بأي رمحٍ يُخترق أقوى درع؟ سيبقى كلانا صامتًا إلى الأبد».

قال: «انظُري كيف تركتِ عقلكِ ينقاد إلى المكان الخطأ».

- شعرتُ بالارتياح. كيف ذلك؟

- هل كنتِ لتجدينني لو قررت البقاء ضائعًا عنكِ؟ هل كنتِ لتتلقي كلمة مني لو قررت أنَّ الصمت أنسب لي؟

قلت: «صحيح».

- لكنكِ تقررين أن تظلي جبانة.

أردتُ أن أعترض، فأم مثلي بعيدة كل البعد عن أن تكون جبانة. لكن كل ما خطر ببالي هو أحدث إصدار من سلسلة الروايات المصورة «يوميات الفتى الجبان» (Diary of a Wimpy Kid)، الذي لن يتمكن من قراءته الآن. لقد تجاوز نيكولاي هذه المرحلة العمرية، لكنه كان قد علَّق ذات مرة بأن النشأة مع سلسلة من الكتب يفرض التزامًا بقراءة كل جزء جديد يصدر منها.

قال: «رأيتِ ما أعنيه؟ ليس مجددًا. في كل مرة تفكرين، تختمين الفكرة بهذه العبارة. وما المشكلة إن لم يتكرر الأمر مجددًا؟».

خطر ببالي أنه لم يعد هناك ما يُعد مشكلة كبرى. فإذا كانت كل لحظة بمنزلة إسدال ستار على اللحظة السابقة، نعم، يمكننا أن نرفع أيدينا ونقول: وما المشكلة؟ أين ذروة هذه المسرحية؟ لكن القضايا الكبرى والجسيمة لا تصنع إلا مكنسة زمنية تمتص كل شيء. إنما الذي يحطِّم الزمن إلى شظايا مبعثرة هو التفاصيل الصغيرة والتفاصيل التي لا تُعد تفاصيل أصلًا. أيام متناثرة بين ما هو متوقَّع وما هو غير متوقَّع، ولم تكن تتيح دربًا مختصرًا بسؤالنا: وما المشكلة؟ في اليوم السابق كنتُ أرتب ثيابه استعدادًا للانتقال إلى منزل جديد. من بينها

قميص أبيض فضفاض عليه اسم كتاب «الفتى الجبان» بالنرويجية، كنتُ قد أحضرته من ناشر في أوسلو. لبضعة أعوام كان يرتديه للنوم. لم أنتبه إليه وأنا أحزم الأمتعة، إذ كانت هناك قُمصان أخرى، أكثر معنى، تحمل قصصًا أفضل لتُروى. لكنه الآن استعاد مكانته ليحكي قصته. كل مساء كنتُ أنتظره في وسط الشارع، في النقطة التي اعتدتُ أن أترقَّب عندها نيكولاي وأخاه وهما يقتربان من اتجاهين مختلفَين. في بعض الأيام النادرة كنتُ منضبطة بما يكفي لأن أوجه بصري نحو اتجاه واحد فقط. وفي أيام أخرى كنتُ ألتفت. ولم يكن الالتفات خطأً، إذ لا دروس تُستخلص من ذلك أصلًا. كان الالتفات دومًا يجلب غشاوة إلى فكري: «لا سبب يمنع أن تعيد الشوارع المظلَّلة بالأشجار نيكولاي إليَّ مرَّة أخرى، متمهِّلًا مثل طائر بلشون رمادي».

- أرأيتِ؟ الآن صرتِ تفكِّرين كالجميع، كيف يمكن لأحدٍ...

قلت: «كيف يمكن لأحدٍ ماذا؟».

- كيف يمكن لأحدٍ أن يصدِّق أنه كان هنا ذات يوم، ثم في اليوم التالي اختفى؟

قلت لنفسي: «*مع ذلك، كيف يمكن للمرء أن يعرف حقيقة من دون أن يقبلها؟ وكيف يمكن أن يقبل خيار إنسان دون أن يُسائلَه؟ وكيف يمكن أن يُسائلَ دون أن يصل إلى طريق مسدود؟ وكم ينبغي للمرء أن يبلغ قبل أن يعثر على نهاية أخرى تتجاوز الطريق المسدودة؟ وإذا*

وُجدت نهاية أخرى تتجاوز الطريق المسدودة، فهل يجوز أن تُسمَّى مسدودة؟».

قال نيكولاي: «ما أمهرَكِ في إرباك نفسكِ».

قلتُ: «حيرة، ارتباك، تشويش. في كل مرة تقول فيها شيئًا أجدني مضطرة إلى العودة إلى القاموس. كل كلمة تفتح لي عشرة معانٍ فاتتني».

- ليس عليكِ أن تعرفي كل المعاني.

- لكن ماذا لو كان الفهم متوقفًا على ما غاب من تلك المعاني؟

- أغلب الناس لا يُشغلون أنفسهم بهذا، تعلمين ذلك.

قلت: «أغلب -ثم صححت لنفسي حتى لا أعمِّم- كثير من الناس ليس عليهم أن يذهبوا إلى هذا الحد كما أفعل أنا كي لا أفقد أحدًا. فكَّرتُ فيما يقوله الناس: «*إنَّ هناك طرقًا لإبقاء الموتى أحياء، إنَّ حبنا وذكرياتنا تحملهم معنا. لكن هل يكفي هذا لنيكولاي؟ لن يُجدي أي سبيلٍ أهون، بل سيجعله يتلاشى من جديد. لقد فاق ذكاؤه كثيرين، ولا سبب يمنعه من أن يفعل ما فعل مرة أخرى*».

قال نيكولاي: «هذا يشبه التعدي بنظري».

قلت: «أتعني تدخُّلًا مني في حياتك؟».

كنت لتوي في اليوم السابق قد زيَّنتُ غرفة في البيت الجديد، سميناها غرفة نيكولاي، بلافتة صنعها لغرفته في بيتنا القديم في كاليفورنيا وكتب عليها: «ممنوع الدخول».

قال: «وكذلك الجزء من عقلكِ الذي لا ينبغي لكِ دخوله».

سألت: «وهل على المرء أن يبقى خارج جزء من عقله؟».

قال: «إن لم يُرِد أن يخرج من عقله بالكلية».

- وهل تتجنب أنت ما لا ينبغي دخوله من عقلك؟

- أتعنين أنني أفعل ذلك الآن، أم كنت أفعله؟

قلت: «لا فرق».

قال: «إن كنتُ أنا المتعدي في عقلي، فقد برأتُ نفسي».

- إذن أبرئ نفسي أنا أيضًا.

قال: «لا تتعدي من البداية».

قلت: «فات الأوان. الحب هو التعدي».

قال: «وكذلك أن تعيش. كيف يمكن لأحد ألا يرى الأمر هكذا؟».

الفصل الرابع

ثم انفَكَّ الزرُّ

قال نيكولاي: «عجبًا، لقد صِرتِ هادئةً».

- أجل. لم أجد الكلمات بعد.

- أمررتِ بيوم سيئ؟

حينئذٍ أدركتُ أنَّ كل قواعد هذا العالم ليست واضحة لي. هل يذهب حيث أذهب أنا؟ هل يرى كل ما أرى؟

قال: «ليس تمامًا. ليس دائمًا».

جال بخاطري أنَّ حتى العلم المطلق محدود. قلت: «إذن فهل لا تمتد قدرتك على قراءة أفكاري لتشمل رؤية العالم المادي الذي أعبُره؟».

- على حسب.

- على حسب ماذا؟

- مزاجي.

سألته: «وأين تكون عندما لا تكون في مزاج لتكون هنا؟».

- هنا! ماذا تعنين بهنا؟

قلت: «أعني حين لا تكون في مزاج لتتحدث معي».

لكن ذلك لم يكن دقيقًا أيضًا.

قال: «ليس من حقكِ أن تعرفي».

كنتُ قد قدتُ سيارتي للتو متجاوزةً زاوية فـ... و مـ...، حيث كنتُ أُوصله صباحًا. أخبرتُه بذلك.

قلت: «مصادفةً. كانت هناك تحويلة لم أتوقعها».

قال: «حيث رأيتُكِ آخر مرة».

قلت لنفسي: « *تلك العبارة كان ينبغي أن تكون على لساني*».

قال: «وعلى لساني أنا أيضًا».

وبعد صمتٍ طويل قال: «عجبًا، لقد صمتِّ من جديد».

قلت: «بعض الأمور لا تزال أصعب عليَّ منها عليك».

- مثل ماذا؟

فكرتُ في الساعات الثماني التي فصلت بين لحظة نزوله عند ذلك التقاطع ولحظة موته. ثماني ساعات زمن طويل. ما حدث خلالها سيظل دائمًا مجهولًا بالنسبة لي.

قال: «ربما هو أقل الأشياء أهمية لتعرفيه».

كم من ثماني ساعات يمكن أن تتسع لها حياة؟ لقد عرفتُ نيكولاي ستة عشر عامًا واثنين وعشرين يومًا. وأحببتُه أطول من ذلك. حين كان رضيعًا كنتُ أعمل في مستشفى، وطوال نوبة عملي، التي تمتد لأطول من ثماني ساعات، كان يرفض أن يرضع من الزجاجة، ثم لا يهدأ حتى

يرضع كل ساعة بعد عودتي من العمل، طوال الليل. طفل في السادسة من عمره أو فتى في السادسة عشرة، عنيد حد الجرأة المفرطة.

قلت: «ومع ذلك، ها هي ثماني ساعات، شيء تعرفه أنت ولا أعرفه أنا».

قال: «وأنا أيضًا لا أعرف ما يجري في أيامكِ معظم الوقت».

قلت: «لكن أيامي هذه نوع مختلف من عدم المعرفة».

قال: «عدم المعرفة هي عدم المعرفة».

لا بد أنَّ عدم المعرفة قريبة الصلة بما يسميه الناس جرحًا. ومع الجرح تأتي كلمات مثل الشفاء والندوب. كلها استعارات سيئة، أساسها التمني. هل يمكن للمرء أن يعيش بخلاصة حُكم عليها باللانهائية القاتلة؟

قال نيكولاي: «السؤال الأجدر هو هل يريد المرء أن يعيش كذلك؟».

تذكَّرتُ قصة كان قد كتبها في المرحلة المتوسطة، عن صبي في الخامسة من عمره اسمه نيكولاي. اقتُلِع من جذوره بفعل ثورة 1917، وفرَّ مع أمه ومربيته من بطرسبورج. ألبستاه معطفًا جديدًا، لكن لا الأم ولا المربية نطقتا بكلمة وهما تنتظران انطلاق القطار من المحطة.

كان يُريني صفحة أو صفحتين كلما انتهى من كتابتها. لم أكن أعرف ما الذي دفعه لكتابة تلك القصة. نيكولاي -الصبي في حكايته، الصبي المسافر نحو المجهول- جلس في عربة القطار، يداعب بلا انقطاع زرًّا نحاسيًّا لامعًا في معطفه. نهته المربية عن ذلك، فيما ظلت الأم صامتة. ثم انحلَّ الزر، ولم يعد المعطف جديدًا.

تذكَّرتُ القشعريرة التي انتابتني حين قرأتُ تلك الجملة. وتذكَّرت أنني قلتُ له إنَّ جملة كهذه قد تقوده بعيدًا إن قرر أن يصبح كاتبًا. كان في الثانية عشرة حينها، لم يكن يثق بكلامي تمامًا. أجابني بأنه لا يستطيع أن يكتب جملة كاملة كما يشتهي، وأنَّ إعجابي لم يزده إلا انكسارًا.

قال الآن: «لكنها الحقيقة. الكمال هو طريقتي الوحيدة في العيش».

ثم انحلَّ الزر، ولم يعد المعطف جديدًا.

قلت: «نيكولاي -أعني ذلك الصبي في القصة- كان سيبلغ الخامسة بعد المائة هذا العام».

قال: «لقد مات. إذا لم يكن ذلك جليًّا بما يكفي».

سألت: «ومتى مات؟ لم أرَ نهاية القصة قط».

قال: «لم أُنهها. لكنني أظنه لم يعش بعد الثانية عشر أو الثالثة عشر».

لم تكن تلك المرة الأولى التي يموت فيها صبي داخل قصصه. في الصف الرابع، أدى أحد مشروعات المدرسة إلى ملاحظة مقلقة من المعلِّمة، وتساؤلات من بعض الآباء الذين كنتُ على صلة ودية بهم.

قال: «إنها مجرد قصص. أنتِ تكتبين القصص. أنتِ تختلقين الأمور حتى في هذه اللحظة».

قلت لنفسي: «*إن ما نختلقه يكون أحيانًا أصدق من الواقع نفسه*».

قال: «المعجم سيعارض قولكِ».

فتَّشتُ عن الكلمة: «**الواقع، الحقيقة، العلاقة بالأشياء**».

قال: «ما تختلقينه هو دائمًا لا واقع، متعلِّق باللاشيء».

قلت: «حسنًا».

قال نيكولاي: «لا تُحبَطي لأنكِ خسرتِ جدالًا. هل لاحظتِ أي تغيير هناك؟».

- أين؟

- عند الزاوية التي تُحزنك.

قلت: «تساقطت أوراق أكثر بكثير».

- لقد كانت هناك أوراق متساقطة بالفعل آنذاك.

لم أكن بحاجة إلى أن يذكِّرني بذلك. فقد رأيتُها، تلك الأوراق الملقاة على الأرض، في صباح لم يكن خريفيًّا بعد، ورأيتُه يقفز فوق كومة منها وهو يبتعد. منذ ذلك اليوم وأنا أراقب الأشجار وهي تُسقط أوراقها أسابيع متواصلة، ومع ذلك لم يكن المشهد يبدو كأنه يقترب من النهاية. لا يكتسب الورق الأخير معنًى وجوديًّا سوى في قصص أو. هنري.[1] ولا يتخذ كل شيء منحًى شعريًّا مأسويًّا سوى في قصة لأو. هنري. أما الحقيقة فهي أنَّ الأوراق تتساقط دائمًا. وبعد حين، تغدو جميعها متشابهة، تلك التي ترتجف في الريح، وتلك التي تتقاذفها العواصف قبل أن تُكنَس أو تُجزَّ بآلات النفخ والجزِّ.

قال نيكولاي: «آلات النفخ والجزِّ. عليك أن تجتهدي أكثر إن أردتِ تعلُّم السجع».

---

(1) O. Henry: كاتب قصص قصيرة أمريكي، اشتهر بقصصه القصيرة ذات النهايات المفاجئة، أشهرها "الورقة الأخيرة".

خطر لي حينها أنه في الواقع لم يكن قادرًا على رؤية العالم المادي الذي كنتُ فيه. الأوراق وطقوس جمعها كانت بالنسبة إليه مجرد تجريد، إذ لم يعش، منذ أن كان في الثالثة من عمره، في مكان تتساقط فيه الأوراق بغزارة في موسم واحد. ما الذي كان يمكن أن يبدو له غير مألوف، أو حتى أشبه بعالم آخر؟ الثلج وأيام العطلة الثلجية، أم قناديل الجليد المتدلية تحت حواف السقف، أم زهور الزعفران الربيعية التي خططنا أن نزرعها معًا وتزهر في فبراير، أم الكاردينال الأحمر وهو ينقر نافذتنا برأسه ومنقاره؛ هل كان دافع الألفة أم العداء تجاه انعكاس صورته هو ما جعله يُصر على نقره؟ لم يكن نيكولاي قد رأى سوى طيور القيق المتوجة الطويلة قرب بيتنا القديم، تلك الطيور الواثقة، الصاخبة، الإقليمية، التي كانت في حرب دائمة مع السناجب.

سأل نيكولاي: «منذ متى بدأتِ تتحدثين عن الطبيعة؟ وعن تلك الأشياء الصغيرة كلها».

تساءلت إلى أين يمكن للمرء أن يتجه عندما يحتاج إلى تفاصيل لا تنفد تعينه على الاحتمال سوى الطبيعة؟ قلت: «الطبيعة ليست صغيرة».

- لكن اهتمامكِ بها لم يكن كبيرًا.

كنتُ أعرف أنَّ قوله صادق. الأرض التي جُبتها: كلما ازدادت لا مادية، قلَّت العوائق، وغدا المرء أكثر خفاءً.

قلت: «ومع ذلك، لقد أوليتُها اهتمامًا».

- الاهتمام الناشئ عن فتور أو لا مبالاة أسوأ من انعدام الاهتمام.

قلت: «لمستَني».

قال: «أنتِ سيئة في النظر والرؤية».

قلت: «في النظر، نعم. أما الرؤية؟ لا بد أنَّ ثمة فرقًا بينهما. فبعض الناس يمكنهم أن ينظروا وينظروا وينظروا دون أن يروا شيئًا».

- لكنكِ تزعمين العكس: أن تري من غير أن تنظري.

تأملتُ كلامه. كنتُ قد رأيتُ في اليوم السابق سربًا من الطيور ينطلق من حقل مفتوح نحو سماء شمالية ملبَّدة. هل سبق أن شهدتُ هذا المشهد؟ مرات كثيرة. حتى إنَّ لديَّ صورة فوتوغرافية له، مطبوعة بالجيلاتين الفضي، أهدتها إليَّ مصوِّرة. لديَّ أيضًا كتابها، وعلى غلافه الصورة نفسها: سرب من الزرازير متجمِّدًا في لحظة طيرانه. لقد رأيتُها كلها: الطيور، السماء، الحقل، الغيوم، أعمدة الكهرباء، لكنني لم أبذل جهدًا في النظر إليها.

قلت: «إن الرؤية تقوم على الحدس، فهي لا تحتاج من الوقت ما يحتاج إليه النظر».

- يا له من سخف.

- أنا لا أقول إلا حقيقةً عن نفسي.

قال: «لا يمكنكِ أن تفهمي الشِّعر إن لم تعرفي كيف تنظرين».

قلت: «أتفق معك في ذلك. أنا أقرأ الشعر هذه الأيام. أليس من المثير للاهتمام أنني بدأتُ أفهم الشعر حين بدأتُ أتعلم كيف أنظر؟».

قال: «أنتِ وحدكِ من قد يجد ذلك مثيرًا للاهتمام. يشبه الأمر شخصًا يقول: اليوم فقط أدركتُ أنَّ الأكل ليس عملاً مُضنيًا».

ضحكتُ. كنتُ يومًا ما طاهيةً مهملة. وحين بدأ نيكولاي يخبز، تخلَّيت عن شرودي وأنا أُعِد الطعام. قال لي فيما بعد: «كنتُ أظن أنَّ الأكل مجرد عمل شاق. الآن تطهين جيدًا فأفهم لماذا يحب الناس الأكل».

قلت: «أنا غبية إلى حدٍّ ما. بليدة، كما تعلم».

بليدة وغافلة، كانتا الصفتين المفضلتين لنيكولاي وأخيه حين يصفاني.

- أتصدقين ذلك حقًّا؟

- ولِمَ لا؟

- كم أكره نفاقكِ دائمًا.

قلت: «آه». ارتبكتُ وفوجئت أنني نسيت أنه كان كثيرًا ما ينعتني بالمنافقة حين يغضب مني. ولم أسأله يومًا عمَّا كان يقصده بذلك.

قال: «إنك تتصنَّعين دورًا مزعجًا».

قلت: «آه، أيُّ دور تقصد؟».

- التظاهر بالبلاهة والسذاجة.

- وماذا لو كنتُ كذلك فعلًا؟ ألم أخبرك من قبل أنَّ الشخصية التي تُشبهني أكثر من غيرها هي ويني الدبدوب؟

قال: «هذا ما يُسمَّى بالتمني الواهم».

تساءلت عن الضرر في أن يتصنَّع المرء البطء والغباء إذا كان ذلك يجعل الآخرين يصرفون أنظارهم عنه، أو إن نظروا لا يرونه على حقيقته، بل لا يرون فيه إلا دبًّا مسكينًا قليل العقل؟

قال نيكولاي: «وما العيب في أن يكون المرء فطنًا ذكيًّا؟».

قلت: «العالم لا يملُّ من إحباط الفطناء وكسر حدة الأذكياء. ومن الخير أن يتجنب المرء العذاب متى استطاع».

قال: «إذن فأنتِ تمثلين نسخة بليدة من نفسك. وهل تعانين أقل بذلك؟».

خطر ببالي أنَّ كلمة المعاناة لم يعد لها مكان أو تعريف في معجمي.

قلت: «أما أنت فتعاني أكثر لأنك تصرُّ على أن تكون فطنًا وذكيًّا».

- أنا أعاني أكثر لأنكِ تريدين أن تفعلي ما يفعله العالم: «أن تُطفئ نيرَ المتوهِّجين وتكسري حدة ذكاء الأذكياء».

قال نيكولاي، بعد صمتٍ طويل: «عجبًا أنتِ صامتة مرة أخرى».

قلت: «كل ما سأقوله سيبدو دفاعيًّا».

- قولي ما تريدين على أي حال.

- لو كنتُ في مثل سنِّكِ ولو كنتُ صديقتك، لشاركتك بريقك وتميزك. وحقًّا ليتنا كنا أصدقاء. أنا أحبك كثيرًا، لكن لا أستطيع أن أحبك إلا بصفتي أمك. أحيانًا تصبح الأم أسوأ عدو لأنها لا تستطيع أن تكون أفضل صديق.

قال: «أنا أيضًا أحبك جدًّا. ليتني لم أوذيكِ».

قلت: «آه. لا أستطيع أن أقول ذلك إطلاقًا. ما يؤلم هو الحياة».

- ولا يُجدي شيء إن تظاهرتِ بأنكِ بليدة أو غبية مع الحياة، أليس كذلك؟

قلت: «لا. ذلك يُنقِص الحدة والبلادة على حدٍّ سواء؛ يُطفئُ الباهر ويجعَلُ الخافتَ أكثر خفوتًا».

سأل نيكولاي: «إذن لا حاجة إلى التظاهر، أليس كذلك؟».

- ليس بعد الآن.

الفصل الخامس

صائدو المطر

قلت: «كنتَ حقًّا ستحب طقس اليوم».

هل بقي له طقس يشعر به؟ هل ما زال يحسه؟ لم يكن ذلك مهمًّا. فقد اعتدنا أن نتحدث عن الطقس كثيرًا، لا كبديل عن حديثٍ حقيقي، إذ كان الطقس عرضةً للاستعمال المُفرِط. كل ما كان بيننا سيظل لنا.

قال نيكولاي: «أهو ممطر؟».

- وغائم وبارد. كئيب.

قال: «إنه تمامًا الطقس الذي أعشقه. ليتني أستطيع أن أخبز شيئًا».

قلت: «فطيرة قرع ستكون مثالية». لم أرِد أن أتوقَّف لحظة كيلا نلحظ معًا أنه اختار كلمة ليت. «**أن يتمنى المرء هو أن يأمل، وأن يأمل هو أن يتوقَّع**». كنتُ قد أريتُه يومًا هذه العبارة التي كتبتها جين أوستن لوصف حماقة امرأتين.

قال: «فطيرة قرع؟ مبتذلة جدًّا. أفضِّل أن أصنع موتشي القرع».

قلت: «يبدو كالهايكو الياباني». كنت قد نسيت موتشي القرع، الذي تذكَّرتُ الآن أنه أخبرني أنَّ بعض أصدقائه نظروا إليه أول الأمر بريبة، لكنهم استمتعوا به في النهاية. لقد كان الخَبز إحدى انتصارات حياة نيكولاي، حين كان يشارك نتائجه مع الأصدقاء. ومهما كان عدد دفعات الكعك والبراونيز والفطائر والحلويات التي خَبزها، كان لا بد أن يطلب أحدهم المزيد. كثير من أصدقائه كتبوا إليَّ، وكلهم ذكروا خَبزه. خطر ببالي أنَّ الأطفال يكونون جائعين في أيام المدرسة.

قال: «ما أوقح هذا التعالي».

- أوه، فقط لأنني شرحتُ قصة وأعجبني عنوانها: «الأطفال يسألون يوم الأحد».

قال: «الأطفال يكرهون أن يُسمَّوا أطفالًا. ثم إن الأمر لا يتعلَّق بالجوع. بهجة الخَبز وبهجة أن يُخبَز لك، هذه لن تفهميها أبدًا».

لقد كنتُ منذ زمن بعيد قد طردتُ بعض الكلمات من قاموسي: أبدًا، دائمًا، إلى الأبد؛ كلها كلمات تجعل يومًا يساوي يومًا، ولحظةً تساوي لحظةً أخرى. الزمن متقلب؛ أن تقول أبدًا أو دائمًا أو إلى الأبد هو طريقة طفولية لمساومة هذا التقلب.

قال نيكولاي: «حسنًا. لا تُبالين بالفهم، ما رأيكِ؟ أهذا كافٍ لكِ؟».

كنتُ أقلق في الأيام التي كان يخبز فيها. نادرًا ما يتحقق الكمال. وكنتُ أحيانًا أقترح أنَّ الطهو قد يكون هواية أفضل، أكثر تسامحًا. وكان محقًّا حين يشير إلى أنه لا يمكنه أن يحضر طبقًا من طعام بائت إلى

حصة اللغة الإنجليزية، حيث كانوا يقرؤون معًا ويلفريد أوين أو دبليو. إس. ميروين[1].

قلت: «أرسل إليَّ أحدهم قصيدة لميروين». منذ موت نيكولاي وأنا أطلب من الناس أن يرسلوا قصائد. كانت تصلني مثل طيور قادمة من أراضٍ شتى، كل منها يحمل نغمةً خاصة في الحِداد.

- وماذا بعد؟

تساءلتُ إن كان لا يزال يحب الشِّعر.

قال: «الكبار يكررون الخطأ نفسه مرارًا». هل نحب دبليو.إس. ميروين؟ يا لها من صدفة، لقد قرأتُ للتو قصيدة له. هل سافرتَ إلى الصين الصيف الماضي؟ وأنا أيضًا، في 1987. هل تعزف أي آلة موسيقية؟ المقرونة، يا للعجب، أليست تلك الآلة التي تشبه الأخرى؟ آه نعم، الكلارينيت! رائع، تعرف تمامًا عما أتحدث».

كان نيكولاي يكره أن يخلط الناس بين المقرونة والكلارينيت. كان يقول مرة: «أن تجهل أمرًا فهذا مقبول، أما أن تتظاهر بالمعرفة فليس مقبولًا». ماذا لو رددتُ قائلًا: «يا للسحر، يا سيدي، لا بد أنك السيد جونز أو سميث لأن لديك أيضًا رأسًا وأربعة أطراف».

ضحكتُ. قلت: «منتقد كعادتك دائمًا».

قال: «كنت أخاف أن أَصير مثلكِ حين أكبر. وعدتُ نفسي ألا أنسى شعور الطفولة أبدًا».

- هل تقصد أن تصبحَ مثلي، أمك، أم أن تكون مثلنا نحن الكبار؟

---

(1) Wilfred Owen، W. S. Merwin

قال: «الكبار بصفة عامة. أنتِ أفضل من معظمهم».

- أشكرك.

- هذا لا يجعلكِ مختلفة جوهريًّا.

- ألا تزال مخيبًا للآمال؟

- لا أقصد الإساءة، لكن بلى.

تذكرت أنَّ أمي كانت تقول: «إن الملح الذي تأكله الأم أثقل من الأرز الذي يأكله الطفل». قلت غير مدركة إلى أين يقودني فكري: «كونك عشت أطول...».

قال نيكولاي: «ليس ذا أهمية تُذكر في الصورة الكبرى».

قلت: «أوافق. كنت قد استمعت إلى أغنية في اليوم السابق، فقد خزَّن كل موسيقاه على هاتفي، ما يكفيني لأيام». وغنيت: «*أتَرى؟ أريد أن تكون حياتي أكثر من مجرد طول*».

قال: «أحيانًا تكونين منطقية حقًّا».

كان من المضحك كيف أسعدني ذلك المديح الصغير. قلت، طارحةً الموضوع الذي لم أعرف كيف أفتحه معه: «لقد انتقلنا إلى بيت جديد. انتقلنا قبل أسبوع، من المسكن الذي استأجرناه مؤقتًا إلى منزل وقع نيكولاي في حبه». قلت: «كل شيء على ما يرام، باستثناء أننا نشتاق إليك اشتياقًا شديدًا».

سكتَ. وأدركتُ أنَّ ما دار بيننا، مهما حاولنا إبقاءه حيًّا، ليس سوى كلمات. ولو أنه ذرف دموعًا من أجلنا، لما علمت. أما دموعنا نحن، فستكون بالنسبة إليه كالطقس، مفهومة فقط لأنها ذكريات ملموسة.

قلت: «المطبخ أُعِدَّ بالكامل ويعمل الآن. إنه دافئ ومضيء. فيه الفرن الذي تحبه. ربما عليَّ أن أبدأ في تعلُّم الخَبز».

قال: «هذا جميل».

لم أستطع أن أحدد إن كان منزعجًا أم ضجرًا أم حزينًا أم غاضبًا. كانت النبرات ما نفتقده الآن، ومن دونها باتت الكلمات عائمة بلا جاذبية، تتفادى بعضها أو -الأسوأ- تتصادم بلا إنذار. قلت: «ليتني أستطيع أن أريك البيت». كنتُ أخوض في مياه خطِرة، ولكن أليس ذلك ما يجدر بالأم أن تفعله، أن تخشى الأسوأ وترجو أن تنقلب الأمور إلى الأفضل؟

قال: «لقد رأيتُ البيت».

فكَّرتُ بأثاثٍ ليس لنا، مُعدٍّ لحياةٍ ليست حياتنا. لكن كان يجدر بي ألا أفكِّر هكذا. لم يعتمد نيكولاي على أثاث الآخرين كبدائل مؤقتة؛ لقد وضع خططًا للمطبخ والحديقة وغرفته.

قلت همسًا حتى بدا قولي مجرد فكرة عابرة: «ألن يكون جميلًا لو أنك تعيش معنا في هذا البيت أيضًا؟».

قال: «لا يهم».

- لِمَ لا؟

- لا يزال بيتنا.

- بيتنا، نعم، ولكنه أيضًا كان بيتًا أشبه بلعبة السلم والثعبان: جدران خاوية وصناديق لم تُفتح بعد تُشكِّل مربعات اللوحة. كل صندوق أفتحه يُطلق ذاكرةً لا يتَّسع لها أي مكان، وكل صندوق

يبقى مختومًا يحتفظ بقدرته على التعثر والإيقاع بك. أن تُلقي النرد أم لا: «لا فرق». ففي لعبة الحظ، الحظ مُحدَّد سلفًا.

قال نيكولاي: «منذ متى صرتِ مستهلكةً نهمةً للتشبيهات التافهة والاستعارات العاجزة؟».

تذمَّرت، قائلةً: «تلك الصفات التي تدلِّل بها نفسك».

على الأقل أنا ثابتة. لم أقل يومًا كلمةً سيئةً في حق الصفات. لكن أنت، أنت قد احتقرتَ التشبيهات والاستعارات.

قلت: «بدأت أفهم فائدتها. هي تملأ المكان قليلًا، تشتت الانتباه، تُخفِّفُ من صعوبة الأشياء قليلًا، وتكون أحيانًا اختصارًا أيضًا، السلالم، كما تعلم».

- لقد أصبحتِ كاتبةً سيئة.
- وهل يهم؟ أريد لعبة بها السلالم أكثر من المزالق.
- إذا كانت وسيلة احتجاجكِ هي أن تصبحي كاتبةً سيئةً، فسأقول إن ذلك غير ضروري على الإطلاق.

قلت: «الموت أيضًا غير ضروري على الإطلاق».

- آه، الناس يموتون دائمًا، عاجلًا أم آجلًا.

دائمًا، أبدًا، إلى الأبد، لو ناهز عمري، هل كان ليدع تلك الكلمات أيضًا؟

قلت: «هناك الكثير من الكُتاب السيئين. ما الخطر في أن أكون واحدة منهم؟».

قال: «تبدين كطفلة تصرخ. لم أحصل على الشوكولاتة. لماذا لا أحصل على الشوكولاتة؟ إنه أمر لا يُطاق؛ لم أعد أعرف كيف أزرر

معطفي. إنه أمر لا يُطاق أن أضع حذائي الأيسر على القدم اليمنى وحذائي الأيمن على القدم اليسرى. ويجب أن أدفع بقدميَّ حتى تؤلمني أصابعي. ويجب أن ألكم الجدار حتى تتورم مفاصلي. ويجب أن أغمض عينيَّ حتى أتعثر وأسقط».

عندما كنت طفلة، كان للبالغين الحق في الدخول في نوبة غضب، لكن هذا لم أقله لنيكولاي.

قال: «وما زلتِ لا تنالين الشوكولاتة. يا لكِ من مسكينة».

اعترضتُ، قائلةً: «أنت لست مجرد قطعة شوكولاتة».

- ولِمَ لا أكون أبله مثلكِ وأقذف بالاستعارات والتشبيهات؟

قلت: «تفضل، افعل ذلك».

سأل: «ثم ماذا؟».

استسلمت. كنت بطيئة حين نتجادل.

- إذن نصبح صيادي المطر.

- ولكن حينها يكون كل شيء باردًا ومبتلًّا، ونعال أحذيتنا زلقة، وأصابعنا خَدِرة، ماذا بوسعنا أن نصطاد؟ أي والد متمرِّس كان خبيرًا في الاصطياد: أطفال يتهاوون، ملاعق تتشقلب، موز وتفاح نصف مأكول، توت نصف ناضج ببقع بلون الدم. كل ما هو قابل للكسر وغير قابل للكسر كان يدخل في حقل الوالد، لكن ماذا بوسعي أن أصطاد في هذا الصباح الرمادي الماطر؟ لا ابتسامتك، ولا النور في عينيك، لا قطة زرقاء، ولا بطريق أرجواني، لا غبار في الريح، ولا خاطر يهمس في أذنك بصوتٍ عالٍ حتى يُغرق كل

موسيقى العالم. ماذا، يا طفلي، يمكنني أن أصطاد الآن، بعدما صار كل شيء خفيًّا؟

قال نيكولاي: «الكلمات، يا أمي العزيزة. سنصطاد كلمات بعضنا، ألا ترين؟».

الفصل السادس

ما أجمله من خريف

قلت: «كيف حالك اليوم؟». كان سؤالًا ساذجًا، لكنني كنت حزينة أكثر من أن أفتش عن افتتاحية أفضل.

قال نيكولاي: «لماذا لا يبدأ الناس محادثاتهم بقولهم: «من أنت اليوم؟»، ألا ترين أنَّ مَن يكون المرء أهم من كيف يكون؟».

قلت: «ومَن أنت إذن؟ يبدو السؤال متطفلًا، أليس كذلك؟».

- وهل «كيف حالك» أقل تطفلًا؟ إن كان السائل يريد حقًّا معرفة الجواب، فهو سؤال متطفل أيضًا.

تأملتُ السؤال: «مَن أنت؟» وقلت: «أظن أنَّ الناس يجدون صعوبة أكبر في قول مَن هم حقًّا. أو لعل هناك احتمالات كثيرة تجعل من العسير أن يقدموا جوابًا واحدًا ويهملوا عشرين جوابًا آخر».

- حين ترين شجرة، هل تقولين: «كيف حالكِ اليوم؟». قد تفكر الشجرة: عادي، يوم عاصف. لكنها مضطرة إلى أن تجيب: «أنا

بخير، شكرًا، وأنتِ؟»، لا، حين ترين شجرة تفكرين: ها هي شجرة.

- الناس أكثر تعقيدًا من الأشجار.

- نحن نظن أننا كذلك. فمَن أنتِ اليوم؟

- أنا أمك.

- أرأيتِ؟ لا تجدين مشكلة في الإجابة مباشرة.

لكنني فكرت أنني لم أكن لأعطي الجواب نفسه لو أنَّ أحدًا آخر سألني.

قال نيكولاي: «وماذا لو سألكِ شخص آخر؟ تخيلي أنكِ ذهبتِ إلى مقهى، وقال لك الرجل خلف المنضدة: مَن أنتِ؟».

- كنت سأقول: أنا لا أحد.

- يا لها من مخيلة!

قلت: «لكن هذه هي المشكلة. سؤال مَن أنت قد سبق أن طُرح وأُجيب عنه من قبل أحد الشعراء».

- ألا يحق لنا أن نبتكر جوابًا جديدًا وأفضل؟

قلت: «ومَن أنت؟».

- أنا شخص، كأن لا أحد سواي.

قلت: «ولست حماقة أحد».

- أنا شخص، لكنني لست خطأ أحد.

تساءلتُ ما الفرق بين شخص ولا أحد. أي إنسان يملك جسدًا ماديًّا ملموسًا لا يمكنه تفادي امتلاك جسد شخص ما، وهذا يجعل عبارة أنا لا أحد نوعًا من الادعاء الزائف.

ادعاء زائف ينطبق على الجميع ما عداي. أستطيع بالتأكيد أن أدعي هذا الادعاء الزائف. لقد قال: «أنا لا أحد». لكنني لن أفعل ذلك. لقد مرت سبعة أسابيع على وفاة نيكولاي. في التقليد البوذي، تنتقل الروح من هذا العالم إلى العالم الآخر بعد تسعةٍ وأربعين يومًا. لم أكن أومن بهذا العالم ولا ذاك، لا بالعالم المليء بالأرواح ولا بالعالم الخالي منها، ولا بالفاصل ذي التسعة والأربعين يومًا الذي يُقال إن الراحلين يحتفظون خلاله بحواسهم بحدة لا يَبلُغها جسد حي. ومع ذلك، ماذا لو لم يوجد هنا غدًا؟ ماذا لو لم يُجب أحد عندما أتكلم غدًا؟

قال: «ذلك سخيف. وجودي هنا أو هناك لا يعتمد على تقليدٍ لا تؤمنين به أساسًا».

قلت: «الخوف لا يتحدث بالعقل أو المنطق».

قال: «الفوبيا غير عقلانية. بوسعكِ حقًّا أن تكوني عقلانية ومنطقية في مخاوفكِ».

- لقد عدَّدت مخاوفي. ربما عليَّ أن أدونها وأكتب إلى جانب كل واحدة كيف أكون عقلانية ومنطقية تجاهها.

قال: «ما جدوى الأيام لي على أي حال؟ هل فكَّرتِ أنه قد يكون الآن هو اليوم، واليوم، واليوم، واليوم؟».

كنت قد فكَّرت في ذلك. وكانت تلك أيضًا مخاوفي: هل يصبح المرء، إذا اقتُلع من تسلسل الأمس واليوم والغد، كسمكة خارجةً عن الماء؟

قال نيكولاي: «سمكة خارج الماء. حقًّا يا أمي، ما أكثر القوالب التي صرتِ تستخدمينها هذه الأيام، وليس حتى في محلها».

فكَّرت أنه ليتني أملك كل العبارات المبتذلة في الدنيا لأصنع منها بركة فاترة أسبح فيها.

قال: «ألتسبحي مثل سمكة كوي بليدة الحركة؟».

اعترضتُ على خياله القاسي.

قال: «السمكة لا تملك سوى ثلاث ثوانٍ من الذاكرة».

قلت: «أخبرتني ذلك مرارًا إذن».

- ذلك ما يُسمَّى العيش في اللحظة.

ارتجفت.

قال: «أعرف. الناس يرددون ذلك دومًا: عليك أن تعيش في اللحظة. ولكني كنت أود أن أسألهم: ولماذا؟ ألتعيش مثل سمكة كوي؟».

فكَّرت أنه لا بد أنني كنت من بين أولئك الذين قالوا له ذلك.

- نعم، أنتِ، وأراهنكِ بعشرة دولارات أنكِ لا تفهمين ما تقولينه أصلًا.

سألت: «ماذا عن خمسة دولارات؟»، كنا نراهن على أشياء كثيرة، وكان نيكولاي قد جمع كومة من أوراق الدين مني.

- ماذا عن سبعة؟

قلت: «حسنًا. ربحتَ. لا أفهم الأمر، ولا أومن بها أيضًا».

- أكُل الآباء خبراء في المراوغة؟

- أظن أن أفضلهم كذلك. أما أنا فلا.

- ولِمَ لا؟ أنتِ أم طيبة.

- لستُ طيبة بما يكفي لأجعلك تبقى.

- حسنًا، أنا أعيش اللحظة الآن.

اللحظة هي حياة مؤلفة من اليوم واليوم واليوم واليوم. إن كان هذا كل ما يملكه الآن، فهل يكون هذا كل ما أملكه أنا أيضًا؟

- إن لم تمانعي قولي: ما أملكه لا شأن له بما تملكينه أنتِ. لِمَ تراهنين على لا شيء؟ عليكِ أن تحسمي أمركِ بشأن ما تريدين.

قلت: «لقد حسمت أمري منذ زمن. لطالما كان الأمر واضحًا: أريد الأمس واليوم والغد، جميعها وفيها نيكولاي».

قال: «كثيرًا ما تشكين أنني أريد أكثر مما ينبغي».

قلت: «أي والد سيريد ما أريده».

- ليس بالضرورة.

- أي والد عاقل إذن.

قال: «حجتكِ ضعيفة. فحتى الشخص العاقل قد يريد أكثر من اللازم».

قلت: «لكن القليل من الوقت الإضافي، كيف يمكن أن يُسمَّى إفراطًا؟». قلت ذلك، مع أنني كنت أعلم أنني أخاطر بخسارة الجدال. هل تُعد خمس سنوات فقط في عمرٍ كامل شيئًا زائدًا؟ عشر سنوات؟

قال: «الوقت كالنقود. لا تُقحم نفسك في الدَّين بإنفاق ما ليس بحوزتك».

فكَّرتُ في الصف الذي كان سيأخذه في الربيع، المالية الشخصية، وكان يتطلع إليه بشوق. أي ظرفٍ يسمح للمرء أن يطلب الغد على سبيل الثقة؟

قال: «لا شيء. الزمن دين عسير السداد. بل مستحيل».

- وكيف عرفت؟

- لأني جرَّبت ذلك.

هل كان يقصد أنه قد استدان من غدوه أكثر مما يحتمل؟ تذكَّرت أنني حين كان صغيرًا كنتُ أرتجف كلما وصفه الناس بالنابغ المبكِّر.

قال: «كنتِ تكررين: تحلَّ بالصبر. وكم مرة قلتُ في نفسي: حسنًا، سأُصدقكِ هذه المرة وأنتظر، فلعل الأمور تتغيَّر، ولعلي أشعر بخلاف ما أشعر به الآن».

قلت: «يفعل معظم الناس ذلك».

- أظن أنَّ معظمهم لا يريد الاعتراف بالفشل، فيستمرون في أخذ مزيد من القروض من مزيد من الغدوات، حتى يغرقوا في دينٍ أعمق.

- وماذا لو كان هذا هو ما يسميه الناس صبرًا؟

لم أكن صبورة قط. ولا كان نيكولاي كذلك. وأصل كلمة صبر في اللاتينية معناه: المعاناة. ما الكلمات الأخرى التي تربط الألم بالزمن، والزمن بالألم؟

قال نيكولاي: «الحنين؟».

قلت: «الحنين: وطن زائد ألم». تُرى هل يشعر بالحنين يومًا؟

قال: «أنا لم أترك الوطن يا أمي».

- مع ذلك تمنيت لو أنني علَّمتك كيف تؤجِّل المعاناة.

قال: «إن لم تكوني قد تعلَّمتِ أنتِ ذلك، فكيف تعلِّمينني؟».

خطيئة الوالد أنه يريد أن يمنح طفله ما لا يملك. على الوالد أن يكون حالِمًا كدون كيخوتي. وقد ذكَّرني اللفظ بما نسيته طوال هذه الأسابيع: في اليوم الذي مات فيه نيكولاي، ولم أكن أعلم بعد، كنتُ أستمع إلى رواية «دون كيخوتي» (Don Quixote) في رحلة طويلة بالسيارة. كنتُ أضحك وحدي. ضحكتُ بعد ذلك مرارًا، لكن تلك الضحكة في السيارة، الضحكة الحالمة، لن أحظى بها بعد ذلك أبدًا.

قال نيكولاي: «ألستِ تتكلمين لأنك خسرتِ جدالًا آخر؟ كان ارتياحًا غريبًا أن يعرف أنَّ دموعي لن تُرى. لم يرني أبكي سوى ثلاث مرات في حياته».

قلت: «ليس هذا السبب، إنما أشعر بالحزن».

- أما زلتِ؟

قلت: «ما زلتُ؟ أحيانًا يغمرني الحزن حتى أشعر بأنني غريبة».

قال: «هذا أقرب إلى شفقة على الذات لا يكبحها كابح».

فكَّرتُ في لغتي. نعم، لقد كان على حق. لم تكن مفرطة فحسب، بل غير دقيقة أيضًا. كيف يمكن مقارنة حزنٍ يندلع كالبركان مع حزنٍ يظل ساكنًا في الداخل كجنينٍ ميت؟ يقول الناس إنَّ الحزن يأتي ويذهب

كموج البحر، لكنني لستُ حاجز أمواج، ولا قاربًا، ولا تمثالًا منسيًّا على شاطئ صخري يُختبَر صبره وصلابته.

قلت: «دعني أُعيد الصياغة. أحيانًا يجعلني الحزن عاجزة عن الكتابة».

قال: «ولِمَ تكتبين إذا كنتِ قادرة على الشعور؟».

- ماذا تعني؟

- أتصوَّر دائمًا أنَّ الكتابة هي لأولئك الذين لا يريدون أن يشعروا أو لا يعرفون كيف يشعرون.

سألت: «وماذا عن القراءة؟». كان نيكولاي قارئًا نبيهًا.

- لمن يقرؤون.

أسابيع مرَّت وأنا لا أقرأ جيدًا. أمسك بالكتب وأتركها بعد صفحة أو صفحتين، فلا أجد ما يُبقيني معها. كنتُ أكتب بدلًا من ذلك، أختلق الحكايات لأحادث نيكولاي. (*وأين نلتقي بعد الآن إن لم يكن في الحكايات؟*).

قال: «أرأيتِ قصدي؟ لا يمكنكِ ألا تكتبي. لا تمانعي حتى أن تكتبي كتابة رديئة».

- لأنني لا أريد أن أشعر بالحزن؟ أم لأنني لا أعرف كيف أشعر به؟

قال: «وما الفرق؟ هل يضع المرء حدًّا لحياته لأنه لا يريد أن يعيش، أم لأنه لا يعرف كيف يعيش؟».

لم أجد ما أقوله.

قال: «أستطيع دائمًا أن أربح أي جدال معك، هل تلاحظين ذلك؟».

لو كنت أجيد الجدال أكثر، هل كان سيبقى في هذا العالم زمنًا أطول؟
لم أطرح عليه السؤال. مثل الحزن، كان السؤال حاضرًا دائمًا.

بدلًا من ذلك قرأت له قصيدة كنت قد ترجمتها عن الصينية، حفظتها عن ظهر قلب حين بلغت الثانية عشرة، ولم أبدأ في فهمها إلا الآن:

حين كنت صغيرًا، لم أعرف طعم الأسى لكنني
أحببتُ أن أصعد الأبراج العالية
أحببت أن أصعد الأبراج العالية
لأكتب شعرًا جديدًا، متصنِّعًا الحزن

والآن وقد عرفتُ طعم الأسى،
وأريد أن أبوح به، لكنني أتراجع،
أريد أن أبوح به، لكنني أتراجع،
فأكتفي بقول: يوم بارد، يا له من خريف رائع.

قال: «أهو خريف رائع حقًّا؟».

قلت: «نعم. ويوم بارد».

الفصل السابع

الكثير من النوافذ والكثير من الزهور

قلت: «أتساءل إن كان ينبغي عليَّ أن أبدأ بتدوين أحلامي».

في الليلة السابقة لم أنم جيدًا. وعندما استيقظت صباحًا علمتُ أنَّ نيكولاي كان حاضرًا في حلمي، لكن، بخلاف شعور واحد، لم يبقَ لي أي لمحة عن الزمان أو المكان أو وجهه.

قال: «إن أردتِ ذلك».

سألته: «هل أحببتَ فعل ذلك؟ لقد جرَّب نيكولاي لفترة أن يحتفظ بمذكرات أحلام، في ملف حاسوبي، بين عدة ملفات قررنا ألا نسترجعها».

قال: «بعض الشيء. لماذا تريدين فعل ذلك؟».

تساءلت: «عجبًا، أليس الجواب واضحًا؟».

قال: «ليس بالنسبة لي».

أخبرته أنني أردت أن أحتفظ بذكرى الأحلام التي كان يظهر فيها.

قال: «لماذا تريدين أن تحتفظي بذكرياتها بينما يمكنكِ التحدُّث معي؟ على أي حال، أحلامكِ باهتة ومُتردِّدة».

لم أشك قط في أنَّ ما بيننا كان أصدق من الأحلام. ومع ذلك، كانت كلماتنا وحدها ما نتقاسمه؛ لم نكن نرى بعضنا الآخر. وإذا كان الحلم لطيفًا فإنه يمنح المرءَ ما يريد أن يراه.

قال: «احلمي إذن».

في الأسابيع الماضية رأيته بوضوح مرة واحدة فقط، أما بقية الأحلام، فكلها سقطت في أهوار الدماغ البشري كما كان حلم الليلة الماضية. بعد أيام قليلة من موته، حلمتُ أننا ذهبنا إلى مستشفى لنأخذه. انتظرنا حيث وُضعت بوصلة على الأرض تشير إلى فروع المبنى الأربعة، وبقينا هناك وقتًا طويلًا قبل أن نلمحه بين الناس، كثيرون منهم يُدفعون على كراسي متحركة. كان يمشي نحونا بهيئةٍ رشيقةٍ غير مستعجلة، وهي الهيئة التي كثيرًا ما شبَّهتها ببلشونٍ رمادي. لكن قبل أن يصل إلينا رمشتُ فاختفى.

قال نيكولاي: «يا إلهي».

- ماذا؟

قال: «إنه مرتب للغاية. والحلم المرتب ليس سوى نوع من الاستغراق في الذات».

كان نيكولاي يستيقظ مبكرًا مثلي. كان يناديني حين يسمعني مستيقظةً: «تعالي هنا يا أمي»، بنفس النبرة التي لم تتغير بين الثالثة والسادسة عشر من عمره. وكنت أقول غالبًا: «أحتاج إلى قهوتي، وأحتاج إلى قراءتي الصباحية قبل أن أتمكن من الحديث». لكنه كان يصرُّ: «تعالي»، فأجلس على سريره، وألف لحافه حوله حتى يبدو كلفافة. كان يبدأ حديثه دائمًا بعبارة: «رأيتُ حلمًا الليلة الماضية». كانت أحلامه

تدور حول الجري، والطيران، والانتقال الفوري، والتحوُّل، لكن قليلًا منها كان يُبهجني أو يُحزنني إلى حد أنني دونت حواراتنا فيها حرفيًّا.

إليك واحدًا منها من أيام المدرسة المتوسطة:

قال لي ذات صباح، ما إن جلستُ بجواره: «رأيت حلمًا مُرهقًا. حلمت أنني كنت عددًا سالبًا، ولم أستطع أن أجد الجذر التربيعي لي».

قلت له: «ذلك ممكن. انتظر حتى تتعلَّم الأعداد التخيلية».

فقال: «أمي، لستُ غبيًّا. أعرف الأعداد التخيلية، لكنني لا أحب أن أتعامل مع ذلك الأمر المزعج».

(كنت قد استعرتُ هذا الحلم لافتتاح محاضرة مرة. وكان نيكولاي فخورًا بذلك، لكن شقيقه الصغير جيه. لم يوافق، قائلًا إنَّ الاستعارة مرتَّبة أكثر مما ينبغي).

وإليك حلمًا أقدم: *«كان نيكولاي في الخامسة من عمره، وذات يوم أخبرني بحلم لم يكن من الليلة السابقة، بل من بضعة أسابيع مضت. استغرقه الأمر أسابيع كاملة من التفكير قبل أن يتمكن من روايته لي:*

«حلمتُ أنكِ كنتِ تقودين السيارة صعودًا على التل، وتوقفْتِ قرب بيت ماري. ثم متِّ وأنتِ جالسة هناك. تساقطت أزهار كثيرة على السيارة وغطَّتها بالكامل. ثم صار المشهد كلَّه غير واقعي، أشبه بلوحة زيتية. استيقظتُ وبكيت طويلًا ولم أستطع النوم».

وهذا حلم أحدث، قبل أقل من شهرين من وفاته:

«رأيتُ في حلم البارحة أننا نسافر. كنا نعبر التفتيش الأمني، وقال موظف إدارة أمن النقل لجيه. ولي: «سأقيِّم طريقة نقلكما»». فصِحتِ غاضبة: «لا تُحوِّل الهندباء إلى هندباء».

قلتُ: «ماذا يعني هذا؟».

قال: «لا أعرف. في حلمي خُيِّل إليَّ أنكِ ابتكرتِ العبارة في اللحظة نفسها لتجادلي، وكنتِ بارعة جدًّا».

قلت الآن: «لا تُحوِّل الهندباء إلى هندباء. لقد كدتُ أمس أن أنهر طالبة مستخدمةً هذه العبارة نفسها».

قال نيكولاي: «لا تسرقي حلمي».

- لم أفعل، بل وبَّختُها بمحاضرة قاسية.
- وما الخطأ الذي ارتكبته وكان يستحق الزجر؟
- قالت إنها لا تريد أن تكون جدية، وأنها تريد أن تكتب قصصًا خفيفة ليكون بمقدورها الضحك على شخصياتها.

قال نيكولاي: «يا لها من أوهام زغبية يمكن للشاب أن يتحملها».

قلت: «أنتَ شاب أيضًا».

قال: «ليس كطالبتكِ الشابة».

- كيف تبدو أوهامك؟

سأل: «هل ينبغي على الجميع أن يمتلكوا وهمًا ما ليعيشوا؟».

تساءلت: «هل لا بد من وجود وهم يجعل المرء مستعدًّا للموت؟».

قال: «هناك فرق جوهري. المرء يموت مرة واحدة».

- فهل هذا هو نهاية الوهم؟

قال: «ليس بمعنى أنه يختفي، لا. يبقى لديكِ. لكن لم يعد وهمًا بل صار واقعًا».

- أليس هذا ما يفعل الحي؟ ألست تتعامل مع الوهم على أنه واقع؟

- أنتِ لا تلتقين أوهامكِ وأنتِ حية.

قلت: «مثلما في مكان ما فوق قوس قزح؟».

يا إلهي، فكرت كم أستخدمُ هذه الأيام الكلمات التي لم تعد كلماتي.

قال: «لا بأس، أنتِ معذورة».

تذكرت يوم ربيع مبكر قبل خمس سنوات. أخذت نيكولاي وأخاه إلى بلدة ساحلية، وبعد الغداء تشابكنا بالأذرع وغنينا طوال الطريق في الشارع: «*نحن ذاهبون لرؤية الساحر، الساحر العجيب من أوز*».

قال نيكولاي: «أتذكُر ذلك. لا بد أننا بدونا أحمقَين للغاية».

قلت: «بدونا سعداء». كان موسم الكساد، وحتى لو جمعنا أعمارنا، لم نكن لنبلغ متوسط عمر السكان المحليين. في الشارع ابتسم الناس لرؤيتنا متشابكي الأذرع وخطواتنا المتناسقة، ومع ذلك كنت بعيدة عما يتخيلونه. كان ذلك عام انهياري، ولم أتمكن من العثور على الكثير من الأوهام لأعيش من أجلها.

قال: «على الأقل تحرصين على الظهور بمظهر سعيد أمام الجميع».

- وأنت كذلك.

- لست بارعًا في ذلك مثلكِ.

كتب أصدقاؤه لي بعد ذلك، موضحين كم بدا لهم دافئًا ومبتهجًا وسعيدًا. وتسأل بعضهم كيف فاتهم ألمه، وماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا لينقذوه. بالنسبة لبعض الناس، القناع ضروري حتى أمام الأصدقاء -وخاصة مع الأقرباء- وهذا لم أستطع شرحه لقلوبٍ شابة ومُجروحة.

قال نيكولاي: «للعيش عليك أن تنشر الأوهام. وهم واحد لا يكفي. وقليل منها لا يكفي».

- كم يكفي إذن؟

- هل تسألينني؟ أنتِ مَن تعيشينها.

قلت، وأنا أترجم له مثلًا صينيًّا: «الأمر كأن تسأل أعمى عن الاتجاهات، أليس كذلك؟».

- وهو، إن فكَّرتِ فيه، هراء. مَن يَقول إنَّ الأعمى لا يعرف الاتجاهات أفضل؟

- إلى أين أذهب من هنا؟

- أوه، أنتِ تعرفين أنكِ بخير.

لم أكن أعلم ذلك. لم أكن أشعر بأنني بخير. كان لي وهم وحيد، تمسكتُ به بكل ما أملك: لقد منحنا نيكولاي حياةً من لحم ودم، وأنا أعيد منحه إياها هذه المرة بالكلمات.

قال: «تكتيك جيد أن تنوِّعي أوهامكِ. لا تضعي كل بيضكِ في سلةٍ واحدة».

لم أستطع أن أمنع نفسي من الإشارة إلى أنَّ ما قاله مبتذل.

قال: «أيًّا يكن».

قلت: «معذرةً. نورني أرجوك».

- أوه، افعلي مثل السناجب. احفري حفرة وضعي فيها حفنةً من الأوهام، واحفري حفرةً ثانية وضعِي المزيد. بعض الأوهام لليوم، وبعضها للغد، وبعضها يحتاج إلى أشهر ليُنضج. أبقِيها جافة حتى لا تتعفن. واحفظيها سرية حتى لا يدوسها الآخرون عن طريق الخطأ أو يحفروا ويسرقوها. اصبري. الإشباع المؤجَّل هو سر حياةٍ ناجحة من الأوهام. وإذا كنتِ محظوظة، بعض الأوهام تزرع نفسها بنفسها. بعضها حتى يصبح بريًّا، مثل زهور الهندباء.

- أتسخر مني؟

قال: «بلى. لا أحد يحتاج إلى أن يتعلَّم كيف يعيش بالأوهام. إنها مثل النوم».

قلت: «هناك حالة تُسمَّى الأرق».

قال: «حتى المُصاب بالأرق ينام».

قلت: «لكن ليس بكفاءة. أليس هذا ما يعانيه مصابو الأرق، نوم ليس ذا جودة؟ ألا يتشبثون به بالكاد؟».

- بما أنكِ كثيرًا ما نهرتِني عن ملاحقة الكمال، فسأقول لكِ يا أمي: فقط ابذلي ما بوسعكِ، وارضَي بكونكِ واهمةً متوسطة المستوى.

تساءلتُ إن كان ممكنًا لأي أحد أن يكون واهمًا متوسطًا.

قلت: «يبدو لي، أنَّ الواهم لا يقبل وصفًا. إما أن يكون، وإما لا يكون».

- أي اسم يمكن أن يأخذ صفة إذا كنتِ تعرفين قواعد النحو.

حاولتُ أن أبتكر أمثلةً أتحدى بها إيمانه بالصفات: «شجرة مماطِلة، ظل سامق، غشية صيفية، خاتمة مثقِلة».

قال: «الضباب الذي لا يُوصَف من الكلمات العاجزة. ماذا تسمين تمددًا دمويًّا لعقل متجلِّط بالكلمات؟».

قلت: «ما دمتُ أبقى بعيدة عن الصفات، أبقى غير مثقَّلة».

- ولماذا هذا النفور من الصفات؟

قلت: «أنا أعارض كل ما فيه حكم، والصفات كلمات متشبثة بأحكامها. سعيد، حزين. طويل، قصير. حي، ميِّت. صغير، كبير. حتى أبسط صفة تدَّعي امتياز إصدار الحكم. ناهيكِ بما تأتي به من صيغ مقارنة واستعلاء مُسيئة».

قال: «أخالفكِ الرأي. الاسم جدار، والصفة نافذة».

ضحكتُ.

- ما المضحك؟

قلت: «لا صفة في عبارتك الحصيفة الحاسمة».

- حسنًا. ماذا عن هذه: الاسم جدار ينقُض ذاته، والصفة نافذة مُلِحَّة.

قلت: «ينقُض ذاته كيف؟ ومُلِحَّة كيف؟». كنتُ جالسة بجوار نافذة، في الغرفة التي كان يُطلَق عليها غرفة نيكولاي. في الخارج كانت الأشجار المماطِلة لم تُسقِط أوراقها كما أملَت عليها الفصول، وهو ما جعل عمَّال تنظيف المزاريب عاطلين عن العمل. في بيتنا القديم في كاليفورنيا كانت لدينا نوافذ واسعة تُطوِّقها أشجار خضراء على مدار العام، وهناك كان نيكولاي يستمع لموسيقى «الفصول الأربعة» لفيفالدي ليلًا. في

هذا البيت الجديد كانت الفصول واضحة في الخارج، لكنه لم يعد يملك سوى ذكريات الفصول الأربعة من الموسيقى لا من التجربة.

قال: «عقلُكِ ينقُض ذاته كما ينقُض الاسم ذاته. وعقلي مُلحٌّ كالنافذة المُلحِّة».

قلت: «يا لها من جرأة، عقلي ليس غرفة مغلقة».

قال: «لعقلي نوافذ أكثر».

- وماذا ترى من نوافذك؟

- كل الأشياء الجيدة التي لا ترينها.

- مثل ماذا؟

- حديقة من الصفات الفائقة. طريق مرصوفة بظروفٍ نابضة بالحياة. قصائد بلا موضوعات. أغانٍ بلا أسماء. ثمَّة سُبل للعيش لا كاسم، ولا داخل اسم، ولا بين الأسماء.

قلت: «لكنها الأسماء في هذا العالم كله التي تفسح حيِّزًا للعيش. الأحياء يحتاجون إلى المساحة داخل أربعة جدران».

سأل نيكولاي: «وماذا ترين خارج غرفتكِ؟».

نظرتُ من النافذة. في الليلة السابقة، وأنا أُعِدُّ العشاء، خطر لي أنني لم أعُد أستطيع فتح النافذة لقطف بضع ورقات غار كما اعتدتُ. أوراق الغار تأتي الآن في قارورة زجاجية صغيرة، تُباع على أرفف المتاجر.

قلت: «زهور، حين ينتهي الشتاء».

قال: «أحسنتِ يا أمي. الزهور تجعل منكِ موهومة من الدرجة الوسطى».

الفصل الثامن

العدو المثالي

قلت: «خبزنا فطيرة يقطين بالأمس». لم يتكلم نيكولاي على الفور، لكنني كنت واثقة بأنه يُصغي. أضفتُ: «لم تكن جميلة مثل فطيرتك، لكنها كانت لذيذة».

كان ذلك في اليوم التالي لعيد الشكر. لم نكن كأسرة بارعين في الاحتفال قط. حين كان نيكولاي في الروضة، تحدَّثت معي مُعلِّمته. قالت: «أجرينا مقابلات مع الأطفال، وقال نيكولاي إنكم تحتفلون بأشياء كثيرة لكن بلا جدية». وأكدت أنَّ تقاليد العائلة مهمة للأطفال.

هل بعض الأيام مميزة أكثر من غيرها، أم أننا نُطلق عليها أسماء ونُحملها بالمعنى لأن الأيام محايدة، فنحاول أن ننتزع منها بعض المحبة كما نفعل مع الأشخاص اللامبالين؟ لم تكن هذه الأسئلة عميقة، لكنها كانت سبب فتوري حيال أعياد الميلاد والمناسبات الكبرى.

أما الأخرى -ذكريات الزواج، عيد الأم، عيد الأب، عيد الحب، وموكب الأعياد على التقويم القمري الصيني- فلم تكن سوى ذلك: أيام نعيشها فحسب.

ومع ذلك كنتُ قد رهبتُ أول عيدٍ يمرُّ بلا نيكولاي. كان يخبز عادةً في الأعياد. وهذه المرة، قررتُ أننا لا بد أن نُعدَّ الفطيرة بأنفسنا.

كان يخبز في عطلات نهاية الأسبوع وفي الأيام التي لا يثقلها الواجب المدرسي. كان يخبز طوال الوقت، وكيف لنا أن نعيد إنتاج «طوال الوقت»؟ الزبدة والكريمة والعسل والقرفة والفانيلا وجوزة الطيب والقرنفل وكل الجرار والقوارير على رفِّ خبزه: لا كلمات أحد، حتى بروست، كان بوسعه أن يعيد إلى الحياة عطرها الدافئ وقد امتزج برائحة أمطار كاليفورنيا الشتوية وأوراق الكافور المبتلة. نحن مدينون لك باختراع يخلِّد الروائح، يا مستر إديسون؛ فمن دونه تبقى ذاكرتنا ناقصة. قال نيكولاي: «على الأقل لم يُغرق العالم أكثر مما هو عليه الآن».

كل تلك الصور ومقاطع الفيديو المنزلية. تخيَّلي لو كان الإنترنت محمَّلًا بالروائح والنكهات. الميتون يملكون ميزة على من يتركونهم؛ أما الباقون فيحتاجون إلى شيءٍ يتمسكون به. لكنني لم أقل ذلك. كان يجدر بي أن أكون آخر من يطرح تلك الحجة. حين كنا نفرغ الصناديق بعد الانتقال، أدركت كم أنا سيئة في حفظ الذكريات. ظهرت صور مدرسية لسنواتٍ، بينما اختفت تمامًا صور سنوات أخرى.

كان هناك ألبوم ضخم لم يُملأ منه سوى صفحة واحدة: صورة أشعة لنيكولاي حين كنتُ في الأسبوع الثاني والعشرين من الحمل. أما كتب مجموعة «تان تان» الكاملة، التي كانت سلسلته المفضلة في سنوات ما قبل المدرسة، فقد تبعثرت ولم يُستعد منها كل شيء، وكذلك الأمر مع مجلدات «بينَتس» التي رافقتنا لسنوات. وما عثرتُ عليه من مجموعة «بينَتس» كان المجلدات التي كان يقرؤها في الأيام الأخيرة من حياته.

قلت: «لا نهاية أبدًا لما يريده الناس».

قال: «إن أردتِ أن تكوني طماعة، فتأكدي أنَّ طمعكِ انتقائي».

قلت: «نحن مَن نحن». كانت جملة جوفاء، تتردد كثيرًا هذه الأيام، كأنها قادرة أن تخفف الألم في قلبٍ أُفرغ من محتواه.

قال: «أيًّا يكن معنى ذلك».

قلت: «لا شيء. قول ما لا معنى له هو مهارة لم تتعلمها بعد».

قال: «ويسعدني ألا أتعلمها».

كان قول ما لا معنى له قد صار طريقتي الجديدة في خداع نفسي، كأن شيئًا قد تغيَّر. لا شيء تغيَّر. الزمن تجمَّد، له ولنا.

قال: «إذن لقد استقررتِ؟».

تساءلت: «استقررتُ في ماذا؟ في أيامٍ بلا نيكولاي؟».

قال: «أعني البيت».

قلت: «نحن كأننا ثلاث حبات بازلاء صغيرة في قرن ضخم». قبل أسبوع كنتُ قد شرحتُ لصديقة أنَّ نيكولاي كان يملأ المكان أفضل مما نفعل نحن مجتمعين. كنا قد تخيَّلنا حياةً في البيت معًا: كعكاته وبسكويته في الفرن، أزهاره تتفتَّح في الحديقة، موسيقاه تملأ البيت، رحيله وعودته موضعا تقدير دائم، لأن أكثر ما أردناه له هو حرية المغادرة وحرية العودة. قال لي وهو في الثالثة من عمره: «أمي، سأعيش معكِ حتى أبلغ الثالثة والسبعين». قلت: «لا، لا، ستغيِّر رأيك». وبعد فترة قصيرة، ولم يكن قد بلغ الرابعة بعد، غيَّر رأيه بالفعل، وقال

لي: «هل يمكن لقلوب الآباء أن تجد سكونًا بعد موت أطفالها؟ لأن أعيش وحدي»، قلت: «لا، لا، ما زلتَ صغيرًا».

قال: «لا يوجد قانون يمنع شيئًا، حتى الاستقرار في مكان فارغ أكثر مما ينبغي. يجعلكِ تشعرين بأنكِ منظَّمة».

قلت: «الفراغ يختلف عن الخلو من الفوضى».

قال: «إذن انشري الفوضى. فوضى، ضوضاء، خثرة، عنقود».

لكن لا كلمة من تلك، فكرتُ، تستطيع أن تطلق سراحي من الفراغ الذي تركه.

قال: «ستستقرين عاجلًا أم آجلًا، حتى لو كان ذلك رغمًا عنكِ».

خطر لي أنني لم أبحث قط في أصل كلمة الاستقرار، ففعلت. قرأت له أصل الكلمة من الإنجليزية القديمة، حيث كانت تعني المقعد، الجلوس، الراحة، أن تأخذ موضع الراحة. هل يمكن لقلوب الآباء أن تجد سكونًا بعد موت أطفالها؟

قلت: «ربما عليَّ أن أطرح السؤال. هل تشعر بأنك مستقر؟».

قال: «إذا كنتِ تقصدين نزول شيءٍ إلى القاع، فنعم، أشعر بأنني مستقرٌ تمامًا؛ مترسِّب».

سألت: «ما الذي ترسَّب؟».

قال: «كل ما كان يزعجني سابقًا. الآن أنا صافٍ تمامًا، نقي وكامل، تمامًا كما أريد».

- ألن يأتِ شيء ليُزعج هذه الترَسُّبات مجددًا؟

- ما الاحتمال الذي تظنيه لحدوث ذلك؟

لم أكن أعلم إن كنتُ حزينةً أم مرتاحةً، أم أكثر حزنًا لأنني شعرتُ بالارتياح.

- أتعرفين، هذه مشكلتكِ. عندما لا تملكين إتقانًا خبيرًا للصفات، لا تعرفين كيف تشعرين.

قلت: «ربما لا أريد أن أعرف».

- فلماذا إذن نتحدث؟

- لا أتحدث معك لأكتشف ما أشعر به.

- لأي سبب آخر إذن؟ ألن تقولي إنه لإبقائي على قيد الحياة، ذلك الهراء؟

فكرت في كتاب بعنوان «هذه الليلة الحقيقية» (This Real Night) لريبيكا ويست. طوال الأيام والأسابيع التي تلت وفاة نيكولاي، كثيرًا ما راودني ذلك العنوان. منذ اللحظة التي تلقيت فيها النبأ لم يخطر ببالي أدنى شك بشأن تلك الحقيقة الباردة والمظلمة التي حلت بنا: هذه الليلة الحقيقية أصبحت وستبقى جزءًا دائمًا من حياتنا.

قلت: «لحسن حظك ولحسن حظي أنني لا أومن بذلك الهراء».

- جيد.

- لكن جيه. وأنا سنبدأ في إعداد دفتر ذكريات لك.

- يا إلهي.

- أوصت بذلك معالجته النفسية. أعتقد أنها على حق. فالذكريات تتلاشى.

- لماذا لا نسمح لما يزول أن يزول؟

- ولِم لا ندع ما يُمحى أن يُمحى؟

- لمَ لا فعلًا؟ كل شيء في الحياة إما يزول وإما يُمحى على أي حال.

قلت: «أعتقد أنك محق».

قال: «بالطبع أنا محق. أنا محق لدرجة أنني معصوم من الخطأ».

للحظة ظننت تقريبًا أنه عاد إلى الحياة، وسمعت صوته ونبرته كما كان يضحك علينا، نحن الكبار القابلين للخطأ.

قلت: «لعل التاريخ البشري تُحرِّكه الرغبة في مقاومة مصيرنا الزائل القابل للمحو».

قال: «يا له من هراء متعجرف. أبغض حين تحاولين أن تظهري ذكية».

- حسنًا، سنبدأ في دفتر الذكريات على أي حال.

سأل: «ألا أستطيع منعكِ؟».

- كما لا أستطيع أنا أن أمنعك من فعل ما تشاء.

- حسنًا.

قلت: «لكيلا أثير غضبك أكثر، لدينا دفتر مثالي لهذا المشروع».

وأنا أفرغ الصناديق وجدت دفترًا قديمًا كان قد بدأه حين كان في الخامسة، وقد كتب على الصفحة الداخلية: «ستون عامًا من نيكولاي». لم يدوِّن فيه أكثر من أسبوعين، ثم عاد إليه عند الحادية عشرة بمدونتين: «الأولى تبدأ بـ «آسف لقد مر وقت طويل!»، والثانية بعد أربعة أيام من رأس السنة: «آسف على التأخير! سنة جديدة سعيدة!»».

قال: «يا إلهي. أتذكَّر ذلك. كنتُ وقتها أظن أنَّ كل كتاب يجب أن يحمل عنوانًا بعددٍ ما من السنوات لشيءٍ ما، كل ذلك بسبب كتابكِ «ألف عام من الدعوات الطيبة»» (A Thousand Years of Good Prayers).

تساءلت: *ستون عامًا من نيكولاي. لم نحصل إلا على ستة عشر عامًا من تلك الستين.* كنت أشعر بالعاطفة المفرطة. الأرقام تجعلني عاطفية. والتقاويم تجعلني عاطفية. الأشياء تجعلني عاطفية: زوج من أحذية العَدْو الخفيفة، مضرب تنس، نوتة موسيقية على حاملها، لوحة أكريليك صغيرة لزهور الخشخاش الذهبية في كاليفورنيا، زرافة محشوة صغيرة فقدت حشوها كله -كنت قد رقعتها لكن الزرافة بقيت نحيلة مترهلة- وطباعة يدوية لبطريق بنفسجي يرتدي قبعة دَرْبِيَّة. وكان الزمن يجعلني عاطفية: الأيام والليالي، الدقائق والساعات، اللحظات التي تهدد بأن تصبح أبدية.

سأل نيكولاي: «ماذا يحدث للعاطفية إذا أخرجتِ منها الزمن؟».

- ماذا؟

- يتبقى هراء.

قلت ببلادة: «ماذا؟». كان نيكولاي قد أخبرني مرة أن جيه. أطلق نكتة ساخرة عني: أمي، أنتِ بليدة. بليدة إلى درجة أنه لو وضعناكِ بجانب ثقب أسود، فلن يمتصكِ الثقب الأسود بل وجودكِ سيمتصه هو.

قال نيكولاي: «الكلمة. ألم تلاحظي أنَّ كلمة الوقت بالإنجليزية time تختبئ في منتصف كلمة عاطفي sentimental؟».

فتحت القاموس وتتبعت الأصل الاشتقاقي للكلمتين. قلت: «لا معنى لذلك».

قال: «يا لعقلكِ الجامد. هل حقًّا عليكِ أن تصنعي هذا الكتاب التذكاري؟ أستطيع أن أرى مستواه من الآن: مُخزٍ. مُذل. فاضح. يمكنك أن تكوني قد كتبتِ ذلك الكتاب بشكل أفضل بكثير، لكنني لم أقل ذلك. كان هناك الكثير من «كان يُمكن أن يكون» في تلك اللحظة». كان بإمكاني أن أسلك أيًّا منها كطريق تقود إلى اللامكان، لتُنهي بي الحال بين الشك والندم. كانت المتاهة التي قررت ألا أدخلها. أفضل أن أظل هنا، أحوم عند المدخل، أشعر بإغراء الانغماس في الذات وأقاومه».

قال نيكولاي: «كم أكره تلك العبارة «الانغماس في الذات»».

- لكنني لا أقصدكِ. لم أصف أحدًا بالانغماس في الذات قط سوى نفسي.
- أليس ذلك نوعًا من الانغماس في الذات أيضًا؟
- إنَّ إيجاد ذات عن طريق الصفات السلبية أفضل من عدم وجود ذات ثابتة.
- حتى لو كانت الصفات السلبية متخيلة؟
- الخيال طائرة ورقية تطيرها الحقيقة. لا فرصة للخيال إن قطعتِ الخيط الذي تمسكه الحقيقة.
- متعالية. أهذا سركِ؟
- سر ماذا؟
- أن تكوني أنتِ؟

- هل تقصد أن أكون أنا كأمك، أم أن أكون أنا، ذاتي؟

قال: «إذن هناك فرق». لطالما تساءلت. يمكن للمرء أن يتوقف عن كونه والدًا أو طفلًا، صديقًا أو عدوًّا، يمكن أن يتوقف عن كونه حيًّا، لكن الذات لا تتوقف عن كونها ذاتها. الموت لا يغير ذلك. الموت يأخذ عنا الكثير، لكن ليس هذا. الموت ليس منتصرًا بالضرورة.

سأل نيكولاي: «هل لا نأخذ هذه الذات على محمل الجد كثيرًا؟».

قلت: «بالطبع نفعل. نأخذها على محمل الجد لدرجة أنَّ حتى الموت، عند مواجهته لتلك الذات، يبهت».

قال: «كم أكره هذا».

قلت: «لكن لديك ذات... ما الصفة التي ينبغي أن أستخدمها؟ أي كلمةٍ أقولها ستصير مبتذلة».

الآن هو الوقت الذي يجب أن نكون فيه دقيقين بأزمنة الأفعال. هل لديَّ ذات؟ هل كانت لي يومًا؟ هل ستكون لي؟

قلت: «الذات بلا زمن، بلا زمنٍ صرفي. لكنها مشوَّهة. اذكر لي شخصًا ذاتُه ليست مشوَّهة».

- هذا لا يُجدي، يا أمي. أنتِ تعلمين أنَّ ذلك لا ينفع.

- لا يمكنك أن تطلب من الجميع أن يكونوا كاملين.

قال: «أستطيع أن أغفر للجميع، لكونهم ناقصين».

- لكن ليس لنفسك.

- حاولتُ، يا أمي، حاولتُ فعلًا. ألَستِ ترين أني كامل بطريقةٍ واحدةٍ فقط؟

كامل. ناقص. زوج من الصفات يعود ويعود في كل المواسم، يومًا وراء يوم، يتهكَّم بنا، يحكم علينا، يعزلنا، يحوِّل عزلتنا إلى مرض. هل ثمة صفة أرفع من الكمال؟ الكامل خالٍ من المقارنة، الكامل يرفض أن يكون في درجةٍ أعلى. يمكننا دائمًا أن نكون جيدين، أن نحسن، أن نبذل قصارى جهدنا، لكن كم مرة يجب أن نبلغ الكمال قبل أن نحب أنفسنا وندع الآخرين يحبوننا؟ ومَن، يا طفلي العزيز، أخرج كلمة محبوب من قاموسك وقاموسي، واستبدلها بكامل؟

قلت: «كنت أتمنى لو جعلتني عدوًّا، بدلًا من أن تجعلني نفسك. أظن أنَّ الأمهات ستكون مناسبةً تمامًا لذلك الدور».

قال نيكولاي: «لا يمكنكِ أن تكوني ذلك من أجلي يا أمي، لقد وجدتُ عدوي الكامل في نفسي».

الفصل التاسع

للأبد

ذهبتُ اليوم إلى معرض السيارات.

قال نيكولاي: «هل قلتِ شيئًا؟».

كانت الثالثة بعد الظهر، أصعب ساعات النهار. كنتُ في انتظار شقيق نيكولاي ليخرج من المدرسة. احتجتُ إلى قوة إرادة كي لا ألتفت نحو الجهة التي كان نيكولاي سيأتي منها نحوي. كانت لديَّ قوة إرادة، لكنها ليست كافية عند الثالثة بعد الظهر. انتظرتُ في منتصف الشارع، كأنهما ما زالا سيقطعان مسافتين متساويتين للوصول إليَّ.

أجبته: «لا، لم أقل شيئًا». أدركت أنني هممتُ أن أخبره عن معرض السيارات. توقفتُ قبل أن تفلت الكلمات. في حياةٍ أخرى لكانت دردشةً عابرة، لكنها لم تكن المحادثة المناسبة الآن. لم أرِد أن أصبح من أولئك الذين يروون تفاهاتٍ للموتى.

قلت بدلًا من ذلك: «اليوم حللنا لغزًا. فمنذ أن انتقلنا إلى البيت لاحظتُ صوتًا منتظمًا، كأنه صادر من داخله. ظننتُ أنه جزء مكسور في جهاز

التدفئة. لكن تبيَّن أنَّ كركدنًا أحمر كان قد اتخذ لعبةً يطرق بها على نافذة القبو: طَرق، طَرق، طَرق، طَرق، بإصرار لا يلين. قلت: «رأيتُه أيضًا على الشرفة. يبدو مأخوذًا بالنوافذ».

قال: «كل الطيور كذلك».

قلت: «لكن هذا مثابر. أتساءل لماذا؟».

كنتُ ما زلت أتحدث عن توافه، لكن كركدنًا حائرًا محيرًا كان أمتع من حكاية معرض السيارات.

قال: «إنه مجرد طائر».

قلت: «ونافذة، وبيت، وفصل من الفصول».

قال: «لا شك أنكِ لستِ خبيرة أسماء».

قلت: «يمكن أن تُروى حكاية حياة بأبسط الأسماء. حين وصلتُ أول مرة إلى أمريكا، كنتُ لا أشتري سوى خبز أبيض سعره تسعة عشر سنتًا للكيس. في العام التالي ارتقينا إلى خبزٍ بثمانية وعشرين سنتًا، ثم تسعة وأربعين، ثم تسعة وستين، ثم تسعة وثمانين، حتى جاء نيكولاي، فصرنا نشتري الخبز الأبيض بدولار وأربعين سنتًا للكيس. لم أكن قد قصصتُ عليه أمر الخبز من قبل، ولا كثيرًا من القصص الأخرى. كنتُ حذرةً مع الماضي، وأردتُ لأولادي أن يعيشوا في عالم تُغلق فيه قصص الوالدين وتُختَم، إن أمكن، للأبد.

قال: «أعطني مثالًا».

قلت: «التوت الأزرق. المرة الأولى التي اشترينا فيها علبة تزن ست أونصات من التوت الأزرق، وكان عمرك ثلاث سنوات، بدا الأمر مسرفًا».

قال: «إنه الوصف «مسرف» الذي يروي القصة، لا التوت الأزرق».

لكن كلمة «مسرف» لن تعيد إليَّ ذكريات نيكولاي كما يفعل التوت الأزرق. في صيفٍ ما قبل أن يتم الرابعة، كنا قد انتقلنا عبر البلاد إلى كاليفورنيا، إلى بيت على الطراز الإسباني في حرم جامعي، جدرانه مبيضة، وسقفه أحمر، وأمام نوافذه الكبيرة طريق تحفها أشجار الكافور. في أحد الأيام خرج نيكولاي مع المربية يتمشيان، فعثرا على شجيرة توت أزرق قرب البيت. قطف بعض الثمر غير الناضج، وأكله، ثم ركض عائدًا إلى البيت وهو يصرخ ويسمي التوت «مفترسًا».

قال: «أتذكر ذلك. أتذكر أنني شعرت بالزهو لأنني كنت أعلم أنَّ المربية، ما اسمها، كانت منبهرة».

قلت: «لقد أخبرتني أيضًا أنك وصفتَ شجرة بأنها مسرحية».

كم تحب أوصافك.

قال: «نعم، أكثر من التوت الأزرق».

سألت: «أيمكن ذلك؟». كنت أمزح كثيرًا بأن ما كان الأطفال في سنك ينفقونه على الهواتف والألعاب والملابس، كنتَ تنفقه أنت على التوت الأزرق. كنا نخزِّن علب التوت الأزرق في البراد، وأكياسًا من التوت المجمَّد في المجمِّد عندما يكون في غير الموسم. كنتَ تأكل توتك الأزرق في فنجان مرسوم عليه شخصية الأمير الصغير اشتريتُه لك من باريس، وبملعقة فضية صغيرة. لا وصف يمكنه أن يصف ذلك الفنجان، أو الملعقة، أو كيس التوت الأزرق المجمَّد الأخير الذي لم نجرؤ على لمسه بعد رحيلك. كم يستغرق الطعام المجمَّد من الوقت ليصير أحفورة؟

قلت: «بدأت أفهم، لماذا يتمسَّك الناس بالأشياء».

قال: «بدأت أفهم العكس. فكل الأشياء الملموسة، كما كل الأسماء، قابلة للاستغناء عنها».

- وما الذي لا غنى عنه إذن؟

- الصفات.

قلت: «هذا أمر مشكوك فيه. ما الذي لا غنى عنه حقًّا؟ يختلط عليَّ الأمر مع هذا السؤال».

قال: «الأسماء بالنسبة لمعظم الناس، لأن العيش في عالم تحدده الأسماء أمر إلزامي».

فكرتُ في جوابه. من ذا الذي يمكنه أن يتحرر من الأسماء؟ آباء، أمهات، أبناء، بنات، أصدقاء، عشَّاق، مسكن، طعام، مهنة، تقاعد. نحن أبناء شجعان لآباء أشد شجاعة، وُلدنا في شبكة من الأسماء، وكلنا مثل أنثى العنكبوت تشارلوت[1] في رواية الأطفال الشهيرة، ننسج لأنفسنا شبكة.

قال نيكولاي: «إلا أنَّ تشارلوت تختار الصفات، وتفعل ذلك لتنقذ غيرها».

قلت: «آه».

- لا يمكنكِ أن تجيبي عن سؤال «ما الذي لا غنى عنه». إن لم تفهمي أولًا ما الذي يمكن الاستغناء عنه.

---

(1) Charlotte's Web by E. B. White

- إذن فالذي يمكن الاستغناء عنه يخدم ما لا يمكن الاستغناء عنه، مثل أساس الهرم والهرم نفسه؟

قال: «هذا تشبيه رديء جدًّا».

قلت: «قدير، مفرح، برزخي... بلا أسماء، هذه الصفات التي تحبها لا تحمل معنى ملموسًا».

قال: «سيكون العالم أكثر وحشيةً أمام الخيال إذا تركت الصفات حرة، لا تعدِّل شيئًا».

قلت: «الخيال كرة مطاطية، تُباع بالبنسات».

- ماذا؟

- آه، إنها جملة وضعتها في قصة حديثة لي.

- ساخرة إلى حدٍّ ما، أليست كذلك؟

أردت أن أقول إن ما يمكن تخيله يشبه ما يمكن صياغته بالكلمات. أسماء، أفعال، صفات، ظروف، ضمائر، حروف جر... لا يهم كم تتآلف معًا، فهي جميعها عاجزة. كنتُ أستطيع أن أتخيَّل نيكولاي يصل قبل أخيه بخمس دقائق، يروي وقائع يومه وهو يُلقي بين الحين والآخر حبة كاجو في فمه. وأستطيع أن أتخيَّل ارتباك كلبنا حين كنتُ أفرغ الصناديق وهو يعبث بأنفه بين ألعاب نيكولاي وأدواته وكتبه وعِدة لصُنع آلة المقرونة الموسيقية. هل تذكره؟ كنتُ أود أن أسأل الكلب، أنت الذي عرفته طوال حياتك؟ وأستطيع أن أتخيَّل أنَّ الحياة تعود إلى الوراء فأعود لأعد أطباقه المفضَّلة وأراقبه يأكل، أو أُصغي إلى حواره مع أخيه. وأستطيع أن أتخيَّل أنني أُعيد كتابة الحياة فأشتري مفارش

الطاولات وقوالب الكعك والستائر والزهور مع نيكولاي. كانت هذه التخيلات تسهِّل عليَّ أن أشعر بالحزن، بل أن أبكي، غير أنَّ الدموع لم تكن سوى قشرة رقيقة تغطي ما لا يُقال. وما لا أستطيع أن أتخيَّله هو ما جعل تلك القشرة بلا جدوى: «الأحلام السيئة التي لم يخبرني بها طوال سنوات، الخطوات التي خطاها والأفكار التي عبرت ذهنه في يومه الأخير، الصفات التي كان سيعلِّمني إياها، الأيام والسنوات المقبلة، به أو من دونه. إنَّ ما لا يُقال جرح يظل مفتوحًا، دائمًا، دائمًا، وإلى الأبد».

قال: «يا إلهي. جرح مفتوح، هذا يجعلكِ تبدين كأنكِ كتاب تنمية ذاتية متوسط الجودة».

قلت: «ألا يتحدث كتاب المساعدة الذاتية عن الشفاء بدلًا من ذلك؟ لن يلقى أي كتاب من هذا النوع رواجًا إذا أخبرك بأن الجرح سيظل مفتوحًا».

قال: «صدقتِ. ولكن جرح مفتوح... يا لها من لغة رديئة تستعملينها الآن».

تساءلت: «ليس هناك لغة جيدة حين يتعلَّق الأمر بما لا يُقال. لا دقة، ولا أصالة، ولا كمال».

قال: «حسنًا، إذا كنتِ تُصرِّين».

قلت: «لا تخف. أنا آخر مَن قد يكتب كتب المساعدة الذاتية».

- ألن يكون كتاب غير ذاتي المساعدة أكثر إثارة للاهتمام؟

سألت: «أتقصد كتاب عن عدم مساعدة النفس؟ كتاب عن تدمير الذات؟».

قال: «بل كتاب يساعد من لا ذات لهم. مثلي».

قلت: «هذا ليس مُضحكًا».

قال: «بل هو منطقي تمامًا. إن كنتِ على استعداد للقراءة ستجدين مئات الكتب التي تدَّعي مساعدتكِ على مواجهة الحزن أو الفقد أو الصدمات. لكن لا يوجد كتاب يساعدني أنا».

سألت: «يساعدك على ماذا؟».

- ما هو جديد عليكِ جديد عليَّ أنا أيضًا. فكيف لي أن أعرف ما الطريقة الصحيحة، أو الجيدة، أو الصحية، أو الواعية كي أكون الآن؟

كان مُحقًّا. لم تكن لدى أي منا أفكار عن الدين أو الميتافيزيقا. لقد اتفقنا على محاورة، تُبقيها إرادتي صامدة ويُبقيها هو حاضرًا برغبته. إرادتي التي قد يراها العالم ضربًا من الجنون قد تُستدر لها الشفقة ويُغتفر لها، لكنها كانت أيضًا إيماني بمن لا يعدُّون ذلك جنونًا. أما رغبته فكانت أصعب على الفهم. لماذا يبقى حاضرًا ولامعًا كأن الموت لم يترك أثره فيه؟... قلت: «ماذا لو كانت أي طريقة تكون بها هي طريقة جيدة؟».

قال: «هذا يبدو مساعدة ذاتية».

قلت: «إذا فكَّرت في الأمر، ربما لا بأس بالمساعدة الذاتية. كل الذوات تحتاج إلى بعض المساعدة».

قال نيكولاي: «إذا كانت الذات تطلب المساعدة، أهذا لأنها تريد أن تكون أفضل في أن تكون ذاتها، أم لأنها تريد أن تكون مثل الآخرين؟».

قلت: «آه. لست خبيرة في ذلك».

- تخيَّلي كتاب مساعدة ذاتية يحمل على غلافه التعريفي العبارة «السر في السعادة: أن تكون مثل مليون شخص آخر».

قلت: «إذن فكتاب المساعدة الذاتية يساعد الذات على أن تكون أفضل في أن تكون ذاتها».

- رياضيًّا هذا لا معنى له. كيف لكتاب أن يساعد مليون ذات وكل ذات مختلفة عن الأخرى؟

إذن على كل واحد أن يملك نسخته الخاصة، كل نسخة تحمل إهداءً: «إلى ذاتي الأثمن، التي لا تُشبه أي ذات أخرى».

قلت: «رجاءً لا تكن ساخرًا».

- أنا أحاول أن أفهم هذا بالجدية نفسها التي تحاولين بها.

- أظن الأمر يشبه غرس أشجار جديدة. كل شجرة متفردة، لكن للطبيعة العدائية والناس اللامبالين تبدو جميع الأشجار متشابهة. بعض الدعامات الكونية قد تُعينها على الثبات.

- كم أكره حين تستخدمين التشبيهات.

سألت: «هل هي سيئة حقًّا؟».

قال: «غير نافعة. تتحدثين عن الأشجار طوال الوقت».

هذه الأيام كان ذهني يتيه نحو الأشجار. أليست التربية هي نفسها تثبيت الأوتاد؟ نحوِّل جذوعنا إلى أعمدة خشبية صلبة، وأذرعنا إلى أربطة متينة، وقلوبنا إلى غلاف رقيق يحتضن اللحاء الغض. نتمسك بالشتلات، متعهدين ألا نؤذيها، راجين نماءها، لكن الأطفال ليسوا أشجارًا. أحيانًا

يرغبون في الذهاب بطريقتهم -مشيًا، جريًا، طيرانًا- من دون أن يشعروا أنهم مشدودون إلى وتد. ليس دائمًا ما يرسخ الأطفال جذورهم.

قال نيكولاي: «الكثير على المحك، أليس كذلك؟».

قلت: «أرجوك لا تسخر مني». إنَّ السؤال -ما الذي على المحك؟- كان دائمًا سؤالًا متكررًا في قاعة الصف حين يناقش طلابي الأدب. كنت قد أخبرت نيكولاي يومًا أنَّ نوعًا من الحساسية المفرطة قد تنامى لديَّ تجاهه.

قال: «على أي حال، لكان أسهل بكثير على الوالدين لو لم يُربُّوا إلا الأشجار، أليس كذلك؟».

قلت: «حتى الأشجار تموت». أخبرته عن زيارة لمتحف قبل سنوات، حيث تابعتُ خبير أشجار ومدير المتحف في جولة بالحديقة. قال خبير الأشجار وهو يقف أمام بستان صغير: «هذه الأشجار هنا ستموت بعد نحو مئة عام»، وشرح أنَّ على المتحف أن يبدأ بالتفكير في بدائل عاجلًا لا آجلًا.

قال نيكولاي: «مئة عام زمن طويل. لن تشتكي عندئذ من قلة الوقت».

قلت: «لا علاقة لفقدان طفل بكمية الوقت التي حظي بها الوالد من قبل».

قال نيكولاي: «ربما. أشعر بالأسى عليكِ. أنتِ حقًّا لم تفكِّري في كل شيء قبل أن تُنجبي».

قلت: «ما كان ليوجد أي طفل على الإطلاق لو استطاع والداه أن يتفكَّرا بكل شيء مسبقًا». ومع ذلك تساءلت: *أحقًّا لم أفعل ذلك؟ ألم أكن، على مدى سنوات، أُعِدُّ نفسي لفقدانه، أعيش الألم قبل وقوعه؟*

سأل: «ولماذا أنجبتِ الأطفال إذن إذا كنتِ تعرفين أنَّ هذا قد يحدث؟».

- حتى أقل الناس تفاؤلًا يرغب في بعض الأمل.

- ألن يكون ذلك مجرد تفكيرٍ رَغَبيٍّ، ذلك الأمل الذي تتحدثين عنه؟

- ربما.

- إذا كنتِ تفهمينه كتفكيرٍ رَغَبيٍّ، فلماذا أنتِ حزينة إذن؟

قلت: «لماذا؟ لأن الاستعداد ليس هو المعايشة. والعيش مُسبقًا ليس هو العيش الحقيقي. سأحزن اليوم وغدًا، بعد أسبوع، بعد عام. سأحزن إلى الأبد».

- ظننتكِ قلتِ إنكِ أخرجتِ عبارة إلى الأبد من قاموسكِ.

قلت: «كان ذلك يومًا ما. أنتَ من أعادها لي».

قال نيكولاي: «ألا يكون القاموس غير مكتمل من دون عبارة إلى الأبد؟».

- كل الكلمات لا غِنى عنها، أليس كذلك؟

الفصل العاشر

أضلتني الحقائق

قلت: «راسلتني صديقتك مارثا».

قال نيكولاي: «إنها في الجامعة الآن. كيف حالها؟».

- لا أدري. لم تذكر ذلك في رسالتها. لقد تحدثت عنك فقط.

- آه.

قلت: «لم أتعرف إلى اسمها في البداية، لكن حين كتبت أنها عازفة الباسون تذكَّرتُها».

- مسكينة مارثا. آمل أن يتاح لها وقت أطول للتدرُّب الآن.

كانت الفتاة في فرقة موسيقية صغيرة مع نيكولاي في العام السابق، وكان المعلم الموسيقي قد حذرها عدة مرات. لكن من أين لها أن تجد وقتًا وهي تحاول أن تكون كل ما تستطيع، وتقدِّم طلبات الالتحاق بالجامعات؟ في حفل الشتاء الماضي عزفت هي ونيكولاي وعازف كلارينيت مقطوعة ثلاثية لباخ. وفي منتصفها تلعثمت ولم تستطع أن تعود للعزف. جلست هناك، أنيقة بثوبها الأسود الطويل، مبتسمة

لنيكولاي وعازف الكلارينيت. سألني نيكولاي: «هل لاحظتِ أنها فاتها النصف الثاني من المقطوعة؟». وحين قلت له إني لم ألحظ، بدا مسرورًا. قال: «لقد عزفت بضع نغمات قرب النهاية، فبدا كل شيء كأنه هكذا».

لم يسبق لي أن تحدثت مع تلك الفتاة، لكنني كنت مولعة بتلك الذكرى.

قال نيكولاي: «أتساءل من أيضًا كتب إليكِ؟».

قلت: «أصدقاؤك، أصدقاؤنا، أساتذتك، آباء زملائك، أناس لا تعرفهم. أوه، ليموني سنيكيت».

قال: «شيء واحد لا أستطيع التباهي به الآن. مَن مِن أصدقائي راسلكِ؟».

قلت: «فقط دعني أنعطف أولًا». كنتُ أنتظر إشارة الضوء الأخضر، ولم أكن أرى الكثير من الطريق. بقي أمامي ثلاثون دقيقة قبل الحصة، ولم أعرف كيف تسللت دموعي ما بين شارعين. كان ثمة شيء قد اعترض طريقي فجأة.

قال نيكولاي: «ما زلت أفضِّل كلمة أضلني. فهي أقل ارتباطًا بالمواسم من عبارة اعترض طريقي».

قلت: «ماذا؟».

- فكِّري يا أمي. إنه الشتاء. ومن غير المرجح أن يعترض أحد طريقكِ.

نظرتُ إلى الشجيرات على جانب الطريق، عارية وغير قادرة على إخفاء أي شيء. حاولتُ قدر ما أستطيع، ومع ذلك لم أستطع أن أرى أشياء كثيرة يراها هو.

قال: «الضلال أكثر حتمية، إلا إذا كان بإمكانكِ تجنُّب الطرق تمامًا».

تغيَّر الضوء، فانحرفتُ إلى شارع على جانبيه بيوت قديمة لكن بلا شجيرات. قلت: «إذا استحوذ عليك فجأة شيء لا تفهمه، هل هناك طريقة للتخلص منه سريعًا من دون أن تفهمه؟».

- وما هو هذا الشيء؟

كانت الكلمات التي خطرت ببالي -فَقْد، حُزن، أسى، ثُكْل، صَدْمة- لا تبدو قادرة أبدًا على أن تُعبِّر بدقة عما يُعذِّبني. يستطيع المرء ويجب عليه أن يعيش مع الفقد والحزن والأسى والثكل. كلها معًا تُشكِّل إطار هذه الحياة، صلبة كالسقف والأرض والجدران والأبواب. لكن هناك شيئًا آخر، مثل طائر يفر عند أول بادرة انتباه، أو صرصور يُصرصِر في الظلام، لا يستقرُّ قريبًا بما يكفي ليُعرَف من أي زاوية يأتي صوته.

قلت: «لو كنتُ أستطيع أن أقول ما هو، ألن يعني ذلك على الأقل أنَّ لديَّ بعض الفهم؟».

- هل تفهمين الشجرة وكيف تشعرين بها حين تعرفين اسمها؟

- هناك موسوعات. على الأقل أستطيع أن أجمع بعض المعرفة العامة.

- المعرفة العامة لن تُفيدكِ. لكن انظري إلى الأمر هكذا: إذا كنتِ تملكين شيئًا، أيًّا كان، فهذا يعني بحُكم التعريف أنه تحت تصرفكِ.

- نعم، بحُكم التعريف.

- إذن تصرفي به!

- كيف إن كنت لا أعرف ما هو؟

- أليس هذا ما علينا أن نفعله طوال الوقت؟ أنتِ أعني. فأنا لم أعُد كذلك. إذا كان لديكِ ألف دولار، فمن السهل أن تضعي خطة بشأن المال. لكن إذا كانت لديكِ حياة، فهل تفهمين ما هي الحياة؟ هل تعرفين ماذا تفعلين بها؟

قلت معترضة: «الحياة ليست شيئًا يمكن التصرُّف فيه كأنه يُستغنى عنه».

قال: «حين أقول تصرفي بها، لا أعني التخلص منها، بل تسويتها».

- آه.

قال: «هناك تعريفات أفضل لكثير من الكلمات التي تريدين أن تستخدميها».

قلت: «قاموسي محدود».

قال: «بلا شك».

قلت: «تعلم ما أدركتُه؟ لم أعُد أرغب في استخدام كلمة معيب. بل يعجبني أكثر أن أقول محدودًا».

قال: «الشخصية المعيبة هي شخصية محدودة، أليس كذلك؟ أنا معيب، وأنتِ معيبة، كلنا نلوم أنفسنا لأننا معيبون».

- لكن الشخصية المحدودة قد تكون لا تزال كاملة.

- لا تتحدثين عن نفسكِ، أليس كذلك؟

- أوه، بالطبع لا أتحدث عن نفسي. الكمال ليس مسعاي.

- وإن كنتِ تقصدينني، فأنا لا أستطيع أن أكتفي بأن أكون محدودًا وأفكر في نفسي كاملًا. هذا خطأ من البداية إلى النهاية.

- إذن فهمي خاطئ؟

- ألا تذكرين أنَّ اليرقة قال ذلك لأليس في رواية «أليس في بلاد العجائب»؟

قلت: «آه، أذكرُ». قبل بضع سنوات زرنا متجر أليس في أكسفورد، وجلبنا لوحتين مطبوعتين، إحداهما لليرقة وهو يقول لأليس من فوق الفطر: «هذا خطأ من البداية إلى النهاية»، والأخرى للملكة الحمراء وهي تشد أليس خلفها وتقول: «يلزمكِ أن تركضي بكل ما لديك من قوة، فقط لتبقي في المكان نفسه».

قال نيكولاي: «لطالما وجدتُ هذين القولين باعثَين على الراحة».

قلت: «وأنا كذلك. ليس دائمًا، لكن أحيانًا».

قال: «من جهة أخرى، إن شئنا، يمكننا أن ننتقي أي عدد من الأقوال من أي عدد من الكتب ونجد فيها عزاء».

قلت: «ليس بالنسبة لي، ليس في هذه اللحظة».

- ولِمَ لا؟ ألستِ بحاجة إلى مزيد من تلك الكلمات المهدئة الآن؟

- لستُ أبحث عن طعامٍ مُعزٍّ في أي كتاب.

- وما الخطأ في طعام العزاء؟ أنا أحب فطائركِ الصغيرة.

كانت الفطيرة الصغيرة الاسم الذي أطلقه نيكولاي على شيء ارتجلتُه حين كان في مرحلة الروضة: «مزيج بسيط من الدقيق والبيض والسكر،

وكان سر نجاحها الحقيقي أن يكون لكل قطعة شكلها الخاص، غير منتظم، لا يُشبه رقمًا ولا حرفًا ولا أي شيء يمكن للعقل أن يربطه به. لم تكن هناك فطيرتان صغيرتان متشابهتان، كما لا توجد ورقتا شجر متشابهتان. لقد أضاف دكتور سوس عشرين حرفًا للأبجدية في كتابه «ما بعد الحرف الأخير» (On Beyond Zebra!)، أما أنا فقد خبزت مئات الحروف لنيكولاي وأخيه الصغير. مثل كتابة قصصٍ لا يقرؤها سوى قارئَين اثنين.

قلت: «ما يُغذي معدتك لا ينبغي أن يكون الشيء نفسه الذي يُغذي عقلك».

قال: «ذلك الاعتقاد غير سليم علميًّا».

قلت: «نعم، أوافقك على المستوى الخلوي والجزيئي. هل أخبرتُك عن ذلك الرجل الذي زرناه في جلسة استشارات للحِداد؟ لقد طلب منا أن نتخيل الكون كقدرٍ عملاق من الحساء الجزيئي. هذه الجزيئات هنا تصنع هذه الطاولة، وتلك الجزيئات هناك صنعت نيكولاي». قلت ذلك مقلِّدةً الطبيب، وبدأت أضحك.

- إن كان قد أضحككِ، ألا ترينه فعَّالًا إذن؟

عند دخولنا مكتبه قال الرجل أيضًا: «أشعر بأنَّ معاناةً ما قادمة»، لكن لم أُخبر نيكولاي بذلك.

قلت: «بعض الضحك لا يدوم».

- لا شيء يدوم.

- ثمة أشياء قليلة تدوم.

- مثل ماذا؟... لا تقولي الحب.

- محادثتنا الحالية.

قال: «لاحظت أنكِ استعملتِ صفة. لم تقولي محادثاتنا الماضية أو المستقبلية».

قلت: «كلمة المستقبلية غير ضرورية إن كانت هذه المحادثة ستدوم. ألا ترى أنَّ كلمة بلا مستقبل في هذه الحالة ليست كلمة قاتمة على الإطلاق؟».

- وكيف تعرفين أنها ستدوم؟

- حقًّا، فكرت في كيف لي أن أعرف.

سأل نيكولاي: «وماذا عن محادثاتنا الماضية؟».

- هي ذكريات.

- وألا تظنين أنَّ الذكريات تدوم؟

قلت: «يتمنى المرء ذلك».

- إذن الذكريات مثل الخلايا، دائمًا ما تحل محلها أخرى جديدة، أليس كذلك؟

فكرتُ في الأمر. *إذ ما وجد الاستبدال أكانت ذكرياته الآن ستبقى مضيئة، عصية على الذبول؟ أكانت لتصبح جزءًا من علمه الكلي؟*

قال: «لم أفكر في ذلك يومًا. فهي ليست من شواغلي، كما تعلمين».

قلت: «لا أعلم، لأني لا أعرف ما شواغلك هذه الأيام».

قال: «كنتِ تعرفين؟».

- نعم.

- لماذا لم تعودي تعرفين؟

قلت: «سيكون من السخافة أن أزعم أني أعرف عنك شيئًا الآن. كنت أقول إنَّ بوسع المرء أن يعرف شخصًا من دون أن يفهمه، لكنني لم أفكر قط أن العكس قد يكون صحيحًا أيضًا سوى الآن».

سأل: «أتفهمينني من غير أن تعرفيني؟».

- لنواجه الأمر. الموت حاجز، مهما قلَّ اعتقادك واعتقادي بقدرته على التفريق.

- أهكذا يشعر أصدقائي أيضًا؟ أنَّ هناك حاجزًا بيني وبينهم؟

كان بعض أصدقاء نيكولاي قد كتبوا إليه، يسترجعون الأوقات التي قضوها معًا ويسألونه عن سبب رحيله المفاجئ. فيما كتب آخرون إلينا، يسترجعون الأوقات التي قضوها معه، من دون أن يسألوا عما دفعه إلى ذلك الرحيل المفاجئ.

قلت: «من ناحية، لا يشعرون بذلك أبدًا، لكن من ناحية أخرى يشعرون به بشدة».

قال نيكولاي: «لا بد أن أشير إلى أنَّ جملة كهذه لا معنى لها. يمكنكِ أن تطبِّقيها على أي موقف لتبدو عميقة».

قلت: «للتوضيح، أريدك أن تعلم أنني لم أستخدم كلمة عميق في كتابتي قط».

- حسنًا، هذا وصف لن أدافع عنه.

- لكنني كنت أفكر في رسائل أصدقائك. لا تسخر من مهاراتهم في الكتابة.

كان موت نيكولاي أمرًا صعبًا على الناس أن يتحدثوا عنه، لكن أصدقاءه حين كتبوا، لم يضطروا إلى اللجوء للكلمات الجاهزة بدافع العجز أو الحرج أو المجاملة. لقد كتبوا من مكانٍ كان نيكولاي لا يزال فيه واحدًا منهم، ومن مكان آخر قيل لهم فيه إنه لم يعد واحدًا منهم.

قلت: «إن كان ثمة ما يُسخر منه، فهو سرعة عجزنا نحن الكبار عن إيجاد الكلمات في موقف غريب أو غير مرغوب فيه».

- غريب أو غير مرغوب؟

- أحيانًا يصعب التمييز.

قال: «الموقف الغريب لا يلزم أن يكون غير مرغوب. مثل الحب من النظرة الأولى».

- أنت مدقق حقيقي.

- أنتِ من يقول: الدقة، الدقة، الدقة.

- وماذا عن هذا؟ نحن الكبار سرعان ما نعجز عن الكلمات، حين تعجز الكلمات التي بين أيدينا أن تؤدي نصف ما نريدها أن تؤديه.

- نصفها أم ربعها؟

قلت: «نحن نعجز عن الكلام عندما لا تؤدي الكلمات ما نريد منها كاملًا».

قال نيكولاي: «إنها لا تؤدي ذلك أبدًا».

- بالضبط.

قال: «فلِمَ لا نكتفي بالنسبة التي تؤديها؟».

قلت: «تخيَّل رسالة تعزية بهذا الشكل: أعلم أنَّ كلماتي لا تكفي للتعبير عن صدمتي لفقدك، وأنها لن تخفف من ألمك كثيرًا، لكن هذه الكلمات هي كل ما أملك...».

قال نيكولاي: «تبدو معقولة بالنسبة لي».

قلت: «لم أنتهِ بعد. «هذه الكلمات هي كل ما أملك، وعلينا أن نكتفي بها، مؤمنَين، أنا وأنت، بالسخاء الكامن حتى في هذا القليل»».

- إذن، هل الناس أكثر تواضعًا من أن يقولوا ذلك؟

قلت: «أو شديدو الوعي بأنفسهم. لا يعرفون ماذا يقولون».

وربما لا يريدون أن يقولوا ما قد يكون خطأ.

- وما الشيء الصحيح الذي يُقال؟

- لا يوجد شيء صحيح أو خاطئ يُقال في مثل هذا الموقف. أصدقاؤك جميعًا بدا أنهم يعرفون ما يقولونه.

- ذلك لأنهم أصدقائي أنا.

- لا، ليس هذا فقط. هم أصدقاؤك، لكنهم صغار السن أيضًا.

قال: «هذا تحيُّز عمري. ينبغي ألا تحسبي ذلك على أحد لأنه صغير السن».

قلت: «بل العكس تمامًا. ما أحاول قوله هو أننا كنا صغارًا يومًا ما. وأصدقاؤك سيكبرون يومًا ويصبحون بُلهاء مثلنا. سيفقدون ذلك الشيء الذي يملكونه الآن».

- وما هو؟

- أصدقاؤك يلتقونك حيث أنت.

- وأين يمكنهم أن يلتقوني غير ذلك؟

- نعم، لكن فكِّر في الشجاعة الخارقة التي يملكونها ليقابلوك حيث أنت. نحن الكبار نميل إلى أن نتعلَّق بحقيقة ما، وبالنسبة لكثيرين أصبحتَ حقيقة. صعب تقبُّلها. مستحيل فهمها. ومع ذلك، أنت حقيقة، وهكذا سيفضِّلون أن يفكروا فيك ويتذكروك الآن.

قال: «لستُ أنا، بل موتي».

- تصحيح مهم، يا عزيزي.

- ماذا يفعل الناس حين لا يستطيعون قبول شيء لا يفهمونه؟

- يسألون: كيف حدث ذلك؟ ما الخطأ الذي وقع؟ أو يقولون أشياء من قبيل أنه في أقسى الظروف توجد دائمًا بارقة أمل إن تركنا كلمات مثل الحب والرجاء تعمل سحرها.

- هل يزعجكِ ذلك؟

- لا.

- لِمَ لا؟

- لأن الناس الذين يعرفونك والناس الذين يعرفونني يلتقوننا حيث نحن. أما الذين لا يعرفونك ولا يعرفونني فليسوا سوى حقائق معيبة أو محدودة، أيًّا كان الوصف الذي تفضله.

- كما أننا نحن أيضًا حقائق معيبة بالنسبة لهم.

قلت: «بالضبط».

- هل تلتقي الحقائق إذن؟

قلت: «في الحكايات الخرافية، لكن ليس في هذه الحياة».

قال نيكولاي: «ولا في أي حياة».

الفصل الحادي عشر

أتمنى لو كنتَ هنا مجددًا

«أتمنى لو كنتَ هنا مجددًا، أتمنى لو كنتَ قريبًا».

كانت هذه الجملة تدور في رأسي بلا انقطاع. قبل أكثر من عام بقليل فقدتُ صديقًا عزيزًا، ولأيام كنت أستمع إلى تلك الأغنية. «ساعدني على الوداع» «Help me say goodbye»، كما لو أنَّ الراحل يمتلك الحكمة أو الشجاعة أو الرغبة ليُسدي إلينا يد العون. مَن الذي يساعدهم على الوداع؟ لسنا نحن الأحياء، المحكومين بحدود ذواتنا الحية. أغانٍ كثيرة، مثل أناسٍ كثيرين. تأتي وتذهب، أو لا نلتقيها أبدًا. لا بد أن هناك زمنًا في مطلع الشباب تبدو فيه الحياة الحقيقية متجسِّدة في ألف أغنية لم تُكتشف بعد، أو في ألفٍ أخرى كُتب لها أن تفلت من متناول اليد، غير آبهة برغبتنا في تثبيتها. هل يطرأ هذا التحول على الجميع أم على بعضنا فقط حين ندرك أنَّ القليل من الأغاني التي تبقى، صدفةً أو قدرًا، أغزر وأبهى مما يستطيع العالم بأسره أن يقدمه؟

قلت: «ليتَك كنتَ هنا اليوم».

قال نيكولاي: «أنتِ تقولين ذلك كل يوم».

قلت: «غير صحيح».

قال: «لكنكِ تفكرين فيه طوال الوقت. وإن لم تقوليها بصوت مسموع، فذلك لأنكِ لا تريدين أن تَظهري ضعيفة».

قلت: «لا أريد أن أبدو ضعيفة، ولستُ ضعيفة طوال الوقت. لكنني بالفعل أتمنى لو كنتَ هنا اليوم. لقد بدأ الثلج يتساقط».

كان الثلج، أول ثلج في الموسم، قد بدأ في الصباح. بحلول بعد الظهر كانت آثار الأقدام الصغيرة للحيوانات، وتلك الأكبر لحذاء رياضي تركها جيه والكلب. حين شاهدا الثلج لأول مرة، قد اختفت تمامًا تحت طبقة جديدة من البياض. كنت أجلس ساكنة بعض الوقت، ذقني مستند على كفي، ومرفقاي على الطاولة، أراقب الثلج يتساقط، حتى أدركت أنَّ جلستي تُعيد صورة مشهورة من فيلم تايواني في سبعينات القرن الماضي، لفتاة في الثانوية تحدِّق حالمةً من النافذة.

قال نيكولاي: «هناك تعبير اصطلاحي يصف ذلك».

تساءلت: «ما أغرب وما أبهى أن يشرد ذهني ثم لا يبتعد أبدًا عن مداه».

وقلت: «تقصد «شاة في ثياب حمل»؟».

- نعم. لطالما أجد صعوبة في تذكُّره.

قلت: «لم تخسر شيئًا بعدم تذكُّره. إنها عبارة لا تتسم بالاحترام».

- أحبُّ العبارات من كل نوع. لستُ صارمًا في الحكم على الكلمات كما أنا في الحكم على الناس.

خطر لي حينها أنَّ تلك الجلسة أيضًا تعود إلى شارل بوفاري في رواية «مدام بوفاري» (Madame Bovary)، الذي جلس بذقنه مستندًا على كفيه، يحدق في إيما بـ «سكينة غبية».

قال نيكولاي: «كلمة سكينة مُفرَط في استخدامها».

قلت: «لكن كلمة غبية هنا صفة لا غنى عنها».

قال: «أتساءل إن كانت الغباوة إحدى القوى التي تجعل العالم يدور».

قلت: «آمل ألا يكون الأمر كذلك».

قال: «يمكن أن نتجادل في هذا، لكننا لن نصل إلى شيء. على كل حال، الغباوة كلمة صعبة الاستخدام».

- لماذا؟

قال: «لأن طفلًا في الثالثة يمكن أن يستخدم كلمة «غبي» بشكل صحيح».

قلت: «لا تتعجل. لقد صادف أنني بحثت عن الكلمة مؤخرًا. لقد صادفت من الغباوات ما يكفي كي يدفعني إلى تفحص الكلمة. الكلمة في اللاتينية تعني: يُصعَق، يُذهل، يُخدَّر».

- وماذا في ذلك؟

قلت: «هذا يعني أنَّ الكلمة أُسيء استخدامها. سُلبت من جذرها الأكثر إحساسًا. شيء يحدث فيصدمنا، يُخدرنا، يُبلدنا. في الغباوة كثير من المعنى والإحساس».

قال نيكولاي: «ماذا عن جمل غبية تخاف من التعثر عند فاصلة، فتضطر إلى تجنُّبها؟».

قلت: «آه، تلك الجمل المسكينة لا ينبغي أن تُحمَّل وزر قرارات لا تملك التحكُّم فيها. كان نيكولاي من أشد المدافعين عن الفاصلة».

قال: «خميرة غبية تُعلن إضرابها في الحليب المغلي».

ضحكتُ. في أول مرة صنع فيها خبز القرع لم ينتظر حتى يبرد الحليب قبل أن يضيف إليه الخميرة. فضحكنا يومها من العجين الذي رفض أن ينهض للمناسبة.

قال: «دورِكِ».

قلت: «لم أكن أعلم أننا نتبارى».

فكرت لحظة ثم قلت: «ملح غبي يتوهَّم نفسه ثلجًا مموَّهًا».

قال: «فزتُ إذن».

قلت: «ليس حقًّا. الثلج شديد البرودة لدرجة أنَّ الملح محكوم عليه بأن يشعر بالخَدَر».

الخَدَر... تلك الكلمة كانت تصفني طوال هذه الأسابيع: مخدَّرة، لكن دون ذهول.

قال نيكولاي: «نهر غبي يسمح لحجر بأن يرتد على سطحه».

كان قلبي يؤلمني. قبل أن يتم نيكولاي السادسة عشرة بأيام قليلة، كنت قد أخذته مع طفلين آخرَين لركوب الكاياك. كان عصرًا مثاليًّا، مشمسًا، نسيمه عليل، ساكنًا على صفحة النهر، والأشجار على الضفتين بدأت تُظهر بشائر ألوانها الذهبية والحمراء، وبعض الأغصان اليابسة كانت تنساب مع القناة. كان الأطفال يتحدثون ويغنون، ثم مضوا في نزهة طويلة على الطريق المظلَّل بالأشجار، يتوقفون بين حين وآخر

ليلهو أحدهم بتسديد الحصى ليرتد على صفحة الماء. كانوا واثقين بسعادتهم كما تكون الأيام الأخيرة من الصيف واثقة بخلودها. بينما كنت أراقبهم، بدأ قلبي يؤلمني بعنف حتى ظننت أنَّ عِلَّة مفاجئة قد باغتتني.

قال نيكولاي: «كل ما في الأمر أنكِ تفكرين في الأمر الآن من مكان مختلف وتضيفين مشاعركِ».

قلت معترضة: «لا. بعض الذكريات لا يمكن إعادة صياغتها. هي ما هي عليه».

قال: «حسنًا، إن كنتِ ترين ذلك».

سكتنا لحظة.

قلت: «الثلج ... كنتَ ستحبه».

لم ينبس نيكولاي ببنت شفة. آخر مرة عشنا في مكان فيه ثلج كانت قبل أكثر من اثني عشر عامًا. كان في الثالثة، وبمساعدة أبوية صنع رجل ثلج يفوقه طولًا بثلاثة أضعاف. وتساءلت هل بقي في ذاكرته شيء من ذلك الرجل الثلجي؟

قال: «قطع رأسه صبيَّان همجيَّان». قلت مترددة مما إذا كان هذا هو الوصف الأمثل: «همجيَّان؟».

قال: «أستخدمها بلا أي دلالة سياسية. يا لفرط حساسية الناس هذه الأيام. أنا أتكلم من وجهة نظر طفل في الثالثة».

كان محقًّا؛ فرجل الثلج لم يعش طويلًا، وُلد وقُضي عليه في اليوم نفسه. اندفع صبيان في السابعة أو الثامنة نحوه، وقبل أن نتمكن من إنقاذه كان رأسه قد تحطَّم، ورُكِل جسده حتى تفتت.

- ماذا تذكر أيضًا من ذلك المَسكَن؟

- ليس الكثير. الملعب. والصخرة الحمراء هناك.

قلت: «آه نعم». لم تكن هناك صخرة حمراء في الحقيقة، لكنه كان قد جرح إصبع قدمه مرةً ونزف حتى احمرَّت الصخرة من الدم. وملتبسًا ظن أنَّ الصخرة الحمراء هي التي سببت الأذى، ومنذ ذلك الحين أصبحت كل الصخور الحمراء في نظره خطرًا.

كان مجمع الشقق، من أسمنت وحديد، قد استُخدم من قبل كثكنات عسكرية، لكنه صار آنذاك سكنًا رخيصًا لطلبة الدراسات العليا والباحثين الزائرين من أنحاء العالم. سر في اتجاهٍ واحد لمدة عشرين دقيقة لتصل إلى حقول الذرة، وسر عشر دقائق في اتجاه آخر لتجد موقعًا كان يومًا معسكرًا حيث بدأ آلاف المورمين، من أصول إنجليزية وويلزية، رحلتهم غربًا ومعهم عربات يدوية فارغة صنعوها استعدادًا للهجرة، فالمدينة التي سكنَّاها كانت نهاية خط السكة الحديدية المتجهة غربًا عام 1865. وعلى بُعد ساعتين بالسيارة شمالًا بيت قضى فيه أنطونين دفورجاك Antonín Dvořák صيف عام 1893 يؤلف فيه «الرباعية الأمريكية» «American Quartet». في الأسبوع الذي سبق موت نيكولاي، تفاجأ بأن أحدًا لم يتعرَّف على لحن لدفورجاك خلال حصة الأوركسترا.

قلت: «هل تعلَم أنَّ دفورجاك فقد ثلاثة من أبنائه؟ لم أكتشف ذلك إلا اليوم».

قال: «لم أكن أعلم».

عندما ودَّعنا نيكولاي، عزفت صديقة عزيزة على كمانها مقطوعة دفورجاك «Songs My Mother Taught Me» «أغانٍ علمتني إياها أمي». لم أكن قد علَّمتُه الكثير من الأغاني، ولا رويتُ له الكثير من الحكايات. لكنني كنت شاهدة على حياته الغنية، حياة تستحق الأغاني والحكايات من النوع الباقي.

قال: «يا إلهي! هذا يبدو كجملة رديئة من سيرة عاطفية مبتذلة».

فكرتُ أنه لا ينبغي لوالد أن يكون كاتب سيرة لطفله. ثم قلت: «حسنًا، لقد عشتَ حياةً ذات غنى متسق وغير متسق في آنٍ معًا».

قال: «متسق وغير متسق مع ماذا؟ كم أكره عادتكِ في الجمع بين صيغتين متقابلتين للكلمة نفسها في جملة واحدة. لا دقة في ذلك، ولا معنى أصلًا».

ارتجفتُ.

حين كان في الثامنة، ركب سيارة أجرة مع صديقة نشرت لي إحدى قصصي، وانتقد أمامها القصة التي نشرتها لي، موضحًا لها أنه كان ينبغي أن تدفعني للعمل بجدية أكبر على الخلفيات.

قال: «آه، تلك؟ كنتُ أُضايقكما فحسب لأنني رغبتُ في ذلك. ومع ذلك، عليكِ أن تعرفي أنَّ كلمة غِنى كلمة مُفرطة الاستعمال، سواء أكانت متسقة أم غير متسقة».

- ماذا عن كثافة؟

- لا تقل عنها سوءًا.

- وماذا عن أناقة، إبداع، فطنة؟

- يا إلهي. ربما عليكِ أن تلتزمي بالأسماء البسيطة: شجر، وزهور، وأوراق، وطيور، ونجوم.

قلت: «والثلج؟».

قال: «نعم، ولمَ لا؟».

تساءلت: *ولِمَ لا؟ لأن الاسم لا يبقى دومًا جدارًا. حتى أبسط اسم يمكن أن يتحول إلى نفق، أو بابٍ سري، أو متاهة، أو فراغ، أو الكولوسيوم، أو سور الصين العظيم، أو «ليلة مُرصَّعة بالنجوم فوق الرون». كما في لوحة فان جوخ، أو إلى الأغاني التي لم تُعلِّمها أم لابنها بعد، أو القصص التي تختار ألا ترويها. يمكن للمرء أن يضع ثقته في الأسماء الجامدة: بيت، مرأب، طريق، فطور، غداء، عشاء، أيام عمل، عطلات نهاية الأسبوع، أعياد.*

تمامًا كما يمكن للعازف أن يشدو أبسط الألحان على البيانو بإصبعٍ واحدة: «تلألئي، تلألئي أيتها النجمة الصغيرة»، «أنا إبريق شاي صغير»، «كان لماري حمل صغير»، «هاي دِدل دِدل». لكن فجأة لا يعود الأمر إصبعًا مبتدئة تلتقط نغمة بعد أخرى، بل قطعة لا يمكن احتواؤها لأربع أيادٍ تعزف معًا: «غريبان يعزفان؛ أحدهما بمنتهى الانضباط، والآخر بلا هوادة؛ أحدهما برهافة متناهية، والآخر بقسوة لا رحمة فيها». من أنتما؟ أتعزفان ارتجالًا لتسلية نفسيكما، أم كُلفتما بعزف هذه الموسيقى غير المتسقة التي تُدعى الحياة؟

سأل نيكولاي فجأة: «ما الموسيقى بالنسبة إلى الحياة؟».

حين كان في الصف السادس، كتب قصيدة تذكَّرها أصدقائي حين جاؤوا لوداعه، وأنشدها أصدقاؤه حين ودَّعوه على الساحل الآخر. كنتُ قد وضعتُ المقطع الأول منها بين صوره في مكتبي:

حياتي

هي كنساس

والموسيقى

قلت: «ما الموسيقى بالنسبة إلى الحياة؟ قل لي أنت».

- أما زلتِ تحتفظين بكل تلك التسجيلات لآلة المقرونة؟

قلت: «نعم». كان معلِّم لآلة المقرونة قد أهداه تسجيلاتٍ لعدد من كبار العازفين.

قال: «حين تستمعين إليهم تُدركين كم هم بالغو الإتقان. ليتني عزفتُ نغمة واحدة بإتقان كما فعلوا».

- أما أنا فلم أكن قادرة على الاستماع إلى أي من تلك التسجيلات إلى ما بعد جملة موسيقية واحدة. كانت أي موسيقى يتردد فيها صوت المقرونة أكثر مما أحتمل.

قلت: «ما زلتَ تتعلَّم».

قال: «كنتُ أتعلم. كنت. لكن هذا ما أدركته: الموسيقى يمكن أن تبلغ الكمال».

سألت: «وماذا عن الحياة، ألا يمكن أن تبلغ الكمال؟».

- لا يضيرني ألا تكون الحياة كاملة، إنما يضيرني أني أعجز عن بلوغ الكمال في حياة ناقصة.

قلت: «الكمال مثل ندفة ثلج واحدة... تذوب».

- والمهووس بالكمال يذوب أيضًا يا أمي.

الفصل الثاني عشر

قصور ذاتي

قلت: «اشترينا شجرة صغيرةِ أمس».

قال نيكولاي: «شجرة إي. إي. كامينجز الصغيرة؟».

قلت: «يا للدهشة، لقد نسيتُ أمرها تمامًا».

- إذن خرجتِ واشتريتِ شجرة صغيرة بلا سبب وجيه؟

قلت: «لأجل عيد الميلاد المجيد. أليس هذا سببًا كافيًا؟».

- ليس سببًا كافيًا. كنتُ أظن أنكِ اشتريتِها بسبب القصيدة، وكنتُ أفكِّر في أن أصفح عنكِ.

في الصف السادس كان نيكولاي قد اختار قصيدة لكامينجز[1] لمهمة مدرسية. لم يكن غالبًا ينجذب إلى الدفء والبهجة في الأدب، غير أنَّ تعليقه يومها كان محبًّا بقدر محبة الصبي في القصيدة:

---

(1) إدوارد إستالن كامينغز (Edward Estlin Cummings)، ويُعرف اختصاراً بـ «إي. إي. كامينجز» (E. E. Cummings): شاعر ورسام أمريكي.

ارفع ذراعيك الصغيرتين

وسأهبك كل شيء لتحملهما

كل إصبع سيكون لها خاتمها

ولن يبقى مكان واحد مظلم أو حزين

قال نيكولاي: «إنه يتحدث من مكان مظلم وحزين، أتعلمين؟».

- أعلم. لقد وصفتَ الشجرة أيضًا باليتيمة.

- هل فعلت؟ لا أذكر.

- أنتَ وأنا نكتب عن الأيتام كثيرًا.

- وها قد صنعتِ يتيمة أخرى من شجرة.

تبادرت إلى ذهني الكلمات: يتيم، أرملة، أرمل، لكن ماذا نسمي والدًا فقد ابنه، أو أخًا فقد أخاه، أو صديقًا فقد صديقًا؟

قال نيكولاي: «أخبرتُك أنَّ الأسماء قاصرة».

قلت: «وكذلك الكلمات».

كان نيكولاي وأخوه الأصغر قد عارضا بشدة شراء أشجار حقيقية تُقطَع لتزيين عيدٍ بشري لا يدوم سوى أسابيع قليلة. لذلك احتفظنا بشجرة اصطناعية، نخرجها كل عام مع الزينة التي بدأنا نجمعها منذ أول عيد ميلاد مجيد في حياة نيكولاي. لكن تلك الشجرة لم تنتقل معنا، ولم نعد نستطيع، كما فكَّرت، أن نشتري واحدة أخرى. فحياة الشجرة الاصطناعية طويلة على نحوٍ مفجع.

قال نيكولاي: «أليس هذا هو المغزى، أن يكون لدينا شيء باقٍ، بدلًا من قتل شجرة كل عام؟».

قلت: «إنها شجرة صغيرة، أقرب إلى نبتة في أصيص».

بالكاد تكفي لأليس بعد أن تصغِّر نفسها.

قال: «الشجرة الصغيرة تبقى شجرة».

قلت: «يمكننا أن نُبقيها حية بعد العيد، لن تُرمى على الرصيف».

قال: «أيًّا يكن».

فكرتُ محتجة: «ناقد كما عهدتك، لا يلين ولا يغفر».

قال مُصطنعًا اللين والغفران: «هل زيَّنتِها؟».

قلت: «أشكرك. لقد زينَّاها».

كنتُ قد اخترتُ في اليوم السابق خمس زينات هي الأخف وزنًا مما نملك: بيتًا، ورجلَ ثلج، وقفازًا، وبطريقًا، وكلبين أخوَين يتشاركان جوربًا واحدًا. وقد حملت الأغصان الرفيعة المرنة ثقلها جيدًا.

- وهل وُجدت هدايا صغيرة تحت الشجرة الصغيرة؟

قلت: «فقط لو كانت بحجم علب الكبريت. لكن لا يمكن أن نضع فيها أي هدايا». وما إن قلت ذلك حتى طفت على السطح ذكرى قديمة. قبل أن أتعلم القراءة، كان أبي يحتفظ لي بعلب كبريت فارغة. كانت متعددة الأغراض: *أصلُها على شكل قطارات لأني لم أركب قطارًا من قبل، وأصفُّها لتصبح أرائك لأني لم أرَ الأرائك إلا في الصور، وأبني بها حصونًا كما في الملاحم الحربية التي كنتُ أستمع إليها عبر المذياع.*

قال نيكولاي: «إذن كانت مثل مكعبات الليجو؟».

قلت: «اللعنة على الليجو! علب الكبريت تلك كانت لا تُقدَّر بثمن».

قال: «قول مضطرب. هي فريدة لأن ذاكرتكِ جعلتها كذلك».

- حسنًا، معك حق.

- ثم إني لا أحب عبارة «لا تُقدَّر بثمن».

قلت: «إنها مجرد صفة». ولم أرغب أن أبوح أنني قد تعلَّمتها من إعلانات بطاقات ماستركارد عند وصولي أول مرة إلى أمريكا.

قال نيكولاي: «أعلم، أعلم. لكنها مشتقة من اسم مقزِّز. كزواج من ضفدع طمعًا في مكسب غير لائق. إنما تأتي بثمن».

قلت: «كل شيء يأتي بثمن، أليس كذلك؟ الأزهار على الطاولة، الصور في الإطارات، طيور البطريق المحشوة -إحدى وأربعون منها- متضامة معًا، حياة قابلة للعيش، موت محتوم، حزن وصبر، خوف ويأس. ذاتٌ إن اقتربت كثيرًا من نفسها لم تحتمل فحصًا جارحًا، وذاتٌ إن ابتعدت أكثر مما ينبغي تحولت إلى طرف شبح».

قال: «كل شيء تقريبًا عدا شيء واحد. الزمن لا يأتي بثمن».

- بل يأتي.

قال: «لا تحتاجين إلى أن تفعلي شيئًا لتأتي الدقائق والساعات والأيام. أنتِ، أي كل من يعيش. لا تستطيعين حتى أن تمنعي الزمن من الانقضاض عليكِ».

قلت: «إذن فلا بد أن يرحل بثمن، أليس كذلك؟ حسنًا يُنفق، أو يُساء إنفاقه. إذا لم يكن علينا أن نكسب وقتنا، فما أسهل أن نهدره».

قال نيكولاي: «ومَن يحكم هنا؟ وقتكِ الذي تقضينه في القراءة يُهدر تمامًا مثل وقت شخص آخر يقضيه في الألعاب الإلكترونية».

في الروضة، قال مرة إنه ما كان ليُمانع أن تكون له أم مثل أم صديقه، التي كانت تجلس عند طاولة المطبخ منشغلة بالألعاب الإلكترونية.

سأل: «وهل خطر لكِ يومًا أنَّ الوقت المستثمَر جيدًا قد يكون مبالغًا في تقديره؟ مستثمَر بحسب مَن؟».

قلت: «وقتي مستثمَر بحسب معاييري أنا».

قال: «وكيف تعرفين أنَّ معيارِكِ نفسه ليس إشكاليًّا؟».

قلت: «لا أعرف. في الحقيقة، أظن أنه قد يكون إشكاليًّا بالفعل».

- وكيف ذلك؟

فكَّرت قليلًا وقلت: «حين كنتُ في مثل سنك...».

قال: «هذه أسوأ طريقة يبدأ بها الوالدان أي موضوع. كأن مَن في العمر نفسه ينتمون بالضرورة إلى النوع ذاته».

- لكننا ننتمي إلى النوع نفسه.

قال: «لا تكوني أدبية إلى هذا الحد».

قلت: «عندما كنتُ في السادسة عشرة، نسختُ في دفتري مقولة من كتاب من عصر أسرة مينج. والترجمة عن الصينية، على وجه التقريب، تقول: «لولا التافهون، كيف يمكن للمرء أن يبلغ الضفة الأخرى من الحياة؟»».

- بعبارة أخرى، لولا كريمتِي الشهيرة، كيف كنتُ سأجمع مئةً وأربعة دولارات في سوق المخبوزات الخيري؟

ضحكتُ. فالكريمة التي كان يحضِّرها كانت دومًا موضع جدال بيننا؛ فكمية السكر التي يضعها كانت تجعلني أرتجف.

قلت: «عندها عزمتُ أن أعمل بنصيحة الكتاب القديم».

- وكيف فقدتِ شهيتكِ لما هو تافه؟

- لم أفقدها. ما ظننته يومًا تفاهة اتضح أنه هو الحياة ذاتها. حياتي أنا.

- وما هي؟

- القراءة.

- آه، تلك.

قلت: «في زمني»... ثم ترددت وتوقفت.

- آمل ألَّا تتكلَّمي مثل كثير من الآباء: في زماننا، كأن الزمن يهمه أن يصير مختلفًا لكل جيل.

قلت: «أصبت الهدف. في شبابي، لم يكن في الحياة الهادفة مكان للشعر أو الرواية أو الفلسفة أو لأحلام اليقظة. ولعل الأمر ما زال كذلك. إذن معك حق، كيف أزعم أنَّ وقتي الذي أقضيه في القراءة أفضل من وقتٍ يُقضى في الألعاب الإلكترونية؟».

قال نيكولاي: «على الأقل أنتِ تجيدين القراءة أكثر من الألعاب. وأنتِ محظوظة».

- كيف ذلك؟

قال: «ما تجيدينه قد لا يعاملكِ بالعدل في المقابل».

قلت: «لم يُعاملك ما تجيده بإنصاف، أليس كذلك؟». كان نيكولاي بارعًا في أشياء كثيرة.

قال: «البراعة شيء، والكمال شيء آخر. مرة بعد مرة كنَّا نعود إلى تلك الصفة: الكمال».

أليس ثمة سبيل للإفلات من فخها؟ أليس هناك شيء -ولو تافه- كان يمكن أن يساعده على بلوغ الضفة الأخرى بسلام؟

قال: «أنا أصلًا على الضفة الأخرى».

قلت: «لكن الناس قد يرون الأمر على نحو آخر».

- يظنونني حُطام سفينة، أليس كذلك؟ لم أُجب.

قال نيكولاي: «ليظنوا ما يشاؤون. الناس يخافون الموت، ويخافون الأموات، ويخافون القرارات غير المألوفة».

قلت: «أتساءل إن كان الخوف هو ما يُبقي الناس ماضين في حياتهم».

قال: «معظم الناس سيقولون إنَّ الأمل هو الكلمة الأنسب هنا».

- ومَن ذا الذي يستطيع أن يفرِّق فعلًا بين الأمل والخوف؟

- سؤال جميل، لكنه مرتبك.

قلت: «آه، تذكَّرت لعبة أخرى من طفولتي».

قال نيكولاي: «ما أشد حنين الأمهات!».

قلت: «مع أنني لم أمتلكها. كانت دوَّامة يدحرجها الأولاد الكبار بالسياط في فناء البيت. لكن حتى لو لم ترها...».

- أعرفها يا أمي. لستُ غبيًّا. وأعرف أنك ستستخدمينها في تشبيه رديء. ستقولين: نحن الدوامات، والخوف يجلدنا، والأمل يجلدنا، إذن الخوف والأمل شيء واحد.

فكَّرت لحظة ثم قلت: «لا، ليس هذا ما أردت قوله».

- أو ستقولين: الأمل هو الدوامة، والخوف هو السوط الذي يحركها.

قلت: «لا».

- الخوف هو الدوامة، والأمل هو السوط الذي يجلده.

- لا!

قال نيكولاي: «إذن ستقولين عندها الجملة الأكثر إثارة: «أيها القدر، أيتها الأقدار، أنتِ من يجلدنا!»».

قلت: «كف عن وضع الكلمات في فمي! لا يهم مَن أو ماذا يجلدنا. ما يهم أنه لا يفعل ذلك طوال الوقت. فسؤالي هو: ما الذي يُبقينا ماضين إذن، الخوف أم الأمل؟».

قال: «علميًّا، إنه القصور الذاتي الدوراني».

قلت: «إذن الأمل نوع من القصور الذاتي؟ والخوف أيضًا؟».

- آه يا أمي، لقد صرتِ مرتبكة إلى حد بعيد.

فكَّرت: «*نعم، أنا مرتبكة. لأنني أستطيع أن أواصل التفكير بلا انقطاع، ولن أصل إلى وضوح: أيهما جعل الحياة غير قابلة للعيش بالنسبة له، الأمل أم الخوف؟*».

قال: «لم أقل يومًا إنَّ الحياة غير قابلة للعيش. لم أعش يومًا واحدًا دون أن يكون فيه ما يهمني، ما أعيش من أجله».

- لكنك لم تعش يومًا واحدًا بما هو تافه فحسب؟

- وما الذي في حياتي يمكن أن يكون تافهًا فحسب؟

فكَّرت: «*ليست الموسيقى، ولا الأدب، ولا الرياضة، ولا الصداقة. هل هو الخَبز؟ الطبخ؟ الحياكة؟ البستنة؟ تسوُّق أدوات المطبخ، أو خيوط الصوف، أو الأوشحة، أو الجوارب الملوَّنة؟ اختيار الهدايا للأصدقاء؟ إنَّ شدة الانغماس تجعل التفاهة نفسها بعيدة المنال. ومع ذلك، كل ما يحمل معنى يحمل ثِقلًا أيضًا. فهل تستطيع سفينة أن تبحر وهي مثقلة بما لم تُهيَّأ لحمله؟*».

قال: «لقد أبحرتُ، بطريقتي».

هل حلَّ هناك وقت كان ينبغي أن أدرك فيه أنَّ ما أسماه **طريقه** كان ينذر بشر؟ أكان ذلك حين شاهد فيلم «البؤساء» (Les Misérables) في الثانية عشرة، ثم قرأ الرواية ثلاث مرات في صيف واحد؟ أم أبكر من ذلك، حين بعثت لي معلمته في الصف الرابع قصائد كتبها، تتحدث عن كآبة لا عزاء لها؟

قال: «يا إلهي، ينذر بشر؟ لم أكن سوى نفسي».

- **هل مجرد أن يكون المرء نفسه حالة مَرضيَّة قاتلة لبعض الناس؟**

قال: «أما رواية «البؤساء»، فقد جعلتني أشعر بالشباب مجددًا».

كانت الرواية على رفِّه الآن، وإلى جوارها تمثال صغير معدني لفيكتور هوجو. وكان هناك أيضًا مجموعة من أشعار جورج هربرت، كان قد اختارها من رفوفي في الفترة نفسها تقريبًا التي اكتشف فيها

رواية «البؤساء»، ولم يدرسها بعد. وكانت هناك لفائف من غزل لم يُحك، وكتب وصفات لم تُجرَّب، وسنوات من حياة لم تُعش.

قال: «لا تتوقفي عند النفي».

- ماذا؟

- يمكنك أن تضيفي النفي إلى كثير من الكلمات فتلغين نفسك.

فكَّرت: «*إلغاء... مُلغى*». كانت من الكلمات التي لم أنطقها بصوت مسموع، لكني سمعتها تُقال عن نيكولاي. حتى لو كفَّ الناس عن قولها، فالكلمات لم تكن بعيدة؛ كانت تحوم بصبر. الكلمات صقور، وعقولنا هي مدرِّبها.

قال: «لا، عقولنا هي الهدف، هي الفريسة».

- ومن يدرب الكلمات إذن؟

– مثل ماذا؟

قال: «لا أعرف».

لم أدرِ إن كان جوابه علامة على فتور اهتمامه، أم شعورًا بالهزيمة. ورجَّحتُ الأولى؛ إذ لم يسبق له أن ترك جدالًا استسلامًا.

قال: ««إلغاء» كلمة مُفرَطة الاستهلاك على أي حال. بوسعكِ أن تقولي ببساطة «إلغاء متابعة» أو «إلغاء صداقة»».

قلت: «هذا أمر مختلف. يمكنك بسهولة أن تلغي متابعة شخص أو أن تمسح صداقته. لكنك لا تستطيع أن تلغي أشياء كثيرة في الحياة. معظم الحياة لا تُلغى».

قال: «ما يمكن إلغاء متابعته أو صداقته لا قيمة له أصلًا. هذه الكلمات -والسماء تشهد أنها مختلَقة- توهمكِ بأن أمامكِ خيارًا، بينما هذا الخيار غير متاح حين يتعلَّق الأمر بما تحتاجين حقًّا إلى أن تلغيه من حياتكِ».

- مثل ماذا؟

قال: «الموت».

قلت: «إذا كان الموت لا يمكن إلغاء صداقته أو إلغاء متابعته، أليس من الأولى أن تكون الحياة كذلك؟».

- لم ألغِ صداقتي بالحياة يا أمي، ولم ألغِ متابعتها. لو كنتُ فعلتُ لما وجدتِني أصلًا، ولما كنا نتحدث الآن.

سألت: «فما الذي ألغيتَه إذن؟ ما الذي كففتَ عن متابعته أو صداقته؟ إن لم تكن الحياة، وإن لم يكن الموت؟».

- الزمن.

قلت: «الزمن؟».

- نعم، الزمن، الذي لا يأتي بثمن.

- إلغاء متابعته أو صداقته هو الآخر له ثمن؟

- لا أدري يا أمي. ليس لي أن أقول.

الفصل الثالث عشر

بعد الزمن

- لم أشترِ لك هدايا لعيد الميلاد المجيد.

نيكولاي: «أليس ذلك أمرًا بديهيًّا برأيكِ؟».

- لو كان بديهيًّا حقًّا، لما اضطررت إلى قوله. بعض الكلمات تُجمع معًا لتقول ما لا تعنيه، أو لتعني ما لا تقوله.

- صدقيني، في كل مرة يقول لي أحدهم: «صدقني»، يلح عليَّ السؤال: ولماذا يجب أن أصدِّقك؟

قلت: «لأكون صريحة معك».

قال: «مع كامل الاحترام».

- لا أريد أن أقلِّل من معاناتك أو أستخف بها.

- ما أكثر ما تهدر الكلمات من فراغ.

- نعم. وإن أردتُ، يمكنني أن أسترسل بلا نهاية.

- الكبار أقدر على ذلك من الصغار، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذن، لنعد إلى ما يحتاج إلى أن يُقال. هل تقولين إنه لا هدية لي من سانتا هذا العام؟

- لم تُصدِّق في وجود سانتا قط.

- كدتُ أُصدِّق في وجوده وأنا صغير.

حين كان نيكولاي في مرحلة ما قبل المدرسة، أمطرني بالأسئلة: «كيف يمكن لسانتا أن يزور جميع الأطفال في ليلة واحدة؟».

قال: «أتذكر ذلك. قلتِ لي: ما دمتَ تُصدِّق في وجوده، سيجلب لك الهدايا».

- وهل صدَّقت إذن؟

قال: «ليس حقًّا، لكنني حصلت على هداياي، فعرفت أنَّ الأمر كله مختلَق. كنت قلقًا لأيام قليلة. خفتُ ألا أحصل على هدايا لأنني لم أُصدِّق في وجود سانتا».

قلت: «لم أكن أعلم أنَّ هذه الأفكار تدور في رأسك».

قال نيكولاي: «ستكون نهاية حياة طفل لو عرف والداه كل ما يجري في رأسه».

في العام التالي، وصلني عدد من الرسائل الإلكترونية من أولياء أمور زملائه في الحضانة، يحذرونني من أنه ينشر الخبر بأن سانتا غير موجود. كتبت لي إحدى الأمهات: «في بيتنا ما زلنا نتمسك بالتقليد»، وأضافت أنَّ ابنتها عادت إلى المنزل مثقلة بالأسئلة، ومنها: «مَن يأكل البسكويت ويشرب الحليب في منتصف الليل إن لم يكن سانتا؟».

قال: «إذن لقد نبهتني بأهمية أن أبقي أصدقائي في الظلام».

قلت: «لا عيب في أن يرغب الآباء في إطالة طفولة أبنائهم».

قال: «حين كنتُ في الصف الرابع، ظننت أنَّ في طفولتي خطبًا ما. كانت سعيدة أكثر مما ينبغي، لا تشبه ما يُروى في الأدب».

قلت: «أذكر أنك قلت ذلك». *تُرى، هل يُعَد ذلك إخفاقًا من الوالدين إن منَحا أبناءهما طفولة سعيدة لا تدوم؟*

قال: «الطفولة تنتهي. حتى أفضل الآباء لا يستطيعون تغيير ذلك. عاجلًا أم آجلًا، يصير تلقي هدايا عيد الميلاد المجيد مجرد فتح صناديق. «حتمي» هي كلمتكِ المفضلة لوصف هذه الأمور».

قلت: «أحيانًا تريد للحتميات أن تتمهل لا أن تأتي باكرًا».

هناك أم التقيناها حديثًا، فقدت ابنها المراهق منتحرًا، قد أخبرتنا أنها في كل عيد ميلاد تُخرج جواربه المحشوة بهدايا الأعوام الماضية، وتضيف إليها شيئًا جديدًا كل سنة.

قال نيكولاي: «لا تفعلي ذلك».

قلت: «لن أفعل».

لم أكن شخصًا منظمًا. قبل أيام أدركت أنني لم أعد أجد جورب نيكولاي المحشو. أشياء كثيرة كانت تفلت من بين يديَّ كالرمل أو الماء، لكن هل كان ذلك مهمًّا؟

قال نيكولاي: «رمل وماء».

قلت: «أعلم. أحيانًا لا يمكن للمرء أن يتجنب التفكير بالمبتذلات».

قال: «تصبح مبتذلة إذا استُخدمت لوصف الزمن. لكنكِ تستخدمينها لوصف شيء ملموس لا يتحرك بنفسه».

قلت: «حسنًا، حسنًا».

قال: «أنا واثق بأنَّ الجورب في مكان ما. لا يمكن أن يكون في اللامكان».

سألت: «إذا لم تعرف الموقع الدقيق لذلك المكان، ألا يصير لا مكان؟».

- يظل في مكان ما.

سألت: «وما اسم المكان الذي يقع بين مكان ما ولا مكان؟».

- بين مكان ما ولا مكان... في بعض الأيام يبدو ذلك الموضع أكثر هولًا من أيام أخرى.

قال: «أي مكان بين مكان ما ولا مكان سيظل مكانًا».

- وهل أنت في مكان ما أيضًا؟

قال: «بالطبع. اللامكان أشبه باللانهاية وما بعدها. يمكن أن تقتربي منه إن حاولتِ، لكن يستحيل أن تصلي إليه».

قلت: «لكن لا بد أن يكون مكانًا ما مختلفًا عن هذا المكان. أعني حيث أنا. هنا والآن. كنت أجلس في غرفة تزدحم بالكتب، في مواجهة نافذة. على حافتها المزججة مزهرية تحوي زهور الكوبية. قبل دقائق كان نقَّار خشب ينقر جذع شجرة قريبة، والآن كان سنجاب يحفر بجنون، لا يمكث في بقعة أكثر من ثانيتين. غدًا، في يوم الانقلاب الشتوي، كان الطقس متوقعًا أن يكون مشمسًا. ولم يبقَ على نهاية العام سوى عشرة أيام.

قال: «إن كان يريحكِ، أستطيع أن أختلق شيئًا عن مكاني. ها هنا بُحيرة، وهناك السماء».

- تمامًا مثل لوحتك التي رسمتها.

- أي لوحة؟

حين كنت أفرغ صناديق لوحات نيكولاي، عثرت على واحدة لم أرها من قبل. كان قد رسمها وهو أصغر سنًّا بكثير، إذ وقَّع اسمه عليها بحروف كبيرة مع ثقة طفولية لكنه أخطأ في تهجئته. كانت ثَمَّة سماء ذهبية تتخللها خطوط خضراء، وحقل أحمر ذهبي تتوسطه بركة زمردية، وثلاث حظائر بنية ذهبية تعلوها شجرة ذهبية مخضوضرة ضعف ارتفاع الحظائر. يقف طفل أطول من الشجرة نفسها، بملامح مذهولة، جسده على هيئة شجرة عيد ميلاد مزيَّنة بكرات ذهبية، وعلى رأسه، بدل الشعر، ربطة عنق بنفسجية ضخمة مرقَّطة بالذهب، بحجم جسده كله. يا له من صبي جريء ومضطرب.

قال نيكولاي: «أتذكَّر اللوحة. خبَّأتها في خزانتي لأنني كتبت اسمي خطأً».

قلت: «كل من يراها سيتساءل من أين جاء ذلك الصبي في اللوحة؟ أو أين صار ذلك الصبي الآن؟».

قال: «في مكانٍ ما. لكن رجاءً، لا تجهدي دماغكِ المسكين بالألغاز».

رويتُ له قصة صديقة عزيزة عليَّ، كانت ضمن برنامج طويل في مهرجان موسيقي محلي. وعندما جاء دورها للعزف، كان الليل قد انتصف، والجمهور المنهك بالموسيقى احتشد في البار طلبًا للمزيد. حين تعزف البيانو في قاعة فارغة، هل يُحسب ذلك موسيقى؟ كنا قد ضحكنا معًا عبر الهاتف حول هذا السؤال. قال نيكولاي وإذا كتبتِ شعرًا لا يقرؤه أحد، هل يُحسب شعرًا؟ انقبض قلبي. لقد احتفظ بالموسيقى

التي أحبها على هاتفي، منذ أن كان في السادسة من عمره. خليط من المقطوعات الكلاسيكية، ومسرحيات برودواي الغنائية، وأغانٍ أوبيرالية عاطفية، وسخريات طريفة من الأوبرا وجدها على الإنترنت، وموسيقى تصويرية لألعاب الفيديو، ومجلد كامل تحت عنوان إديث بيلاف (وكم ضحكنا على خطئه في الاسم). كنت محظوظة لأن لديَّ كل قطعة موسيقية أستمع إليها، ومع ذلك كان الحظ في هذه الحكاية أنقى وأعمى من أن يُحتمل. في كل مرة أشغِّل الموسيقى كنت أفكِّر في شعره، المكتوب والذي لم يُكتب بعد، ذاك المجهول عني.

قال نيكولاي: «لقد سمعتْ هي الموسيقى بنفسها. وذلك هو ذروة مجد أي موسيقي، ألا توافقين؟».

قلت: «الذروة المجد، نسيتُ أنك تحب هذه الكلمة».

قال: «اسم متأنِّق أكثر من ذوقكِ».

قبل أعوام، حين نشرت صديقة لنا أول كتابين من ثلاثيتها «العطَّار ومساعدوه» (The Apothecary and The Apprentices)، سألني نيكولاي أن أستفسر منها عن عنوان الكتاب الثالث. قال: «إن لم تكن قد استقرَّت على عنوان بعد، فلديَّ العنوان المثالي هو «ذروة المجد»».

قال: «ما زلت أحب أن يكون عنوانًا لكتاب».

- كنت أنوي أن أجعله عنوانًا لكتابي للأطفال.

قال: «آه، ذلك الكتاب. شخصياتكِ كلها لن تفهم معنى الكلمة».

حين بلغ نيكولاي الخامسة، وعدته أن أكتب له كتابًا للأطفال. وفي كل عام كان الوعد يُؤجل إلى العام التالي. قبل أشهر قليلة من موته أريته أول فصلين منه، فأنكرهما بشدة كأنه يرفضهما بكل كيانه.

قال الآن: «لكن يا أمي اعترفي أنكِ لا تستطيعين كتابة كتاب للأطفال، أنتِ سيئة في ذلك. سيئة على نحوٍ مروِّع، فظيع، مزلزل، يقشعر له البدن».

قلت: «عدت للحال اللغوي الذي تدمنه. أما أنا فأحببت الفكرة نفسها».

كان الكتاب، أو على الأقل ما تخيَّلته منه، نصف سيرة ذاتية لدُمية قماشية تخص طفلة صغيرة أُخذت أمها المناضلة في سبيل حقوق النساء إلى السجن، ونصفًا آخر عن القارئة الأكثر استحالة لتلك السيرة، مراهقة تعيش في زمن سناب شات وإنستجرام.

- ما زال بوسعكِ أن تكتبيه، كما يمكن لصديقتكِ أن تعزف في القاعة الخاوية.

فكرت أنه لا سبب لكتابته بعد الآن. لقد أجلتُه عامًا بعد عام، كأن الزمن لا نهاية له.

قال: «ظننتُ أنكِ كنتِ تفخرين دومًا بأنكِ لا تؤجلين الأمور».

قلت: «أجلتُ مشروعًا واحدًا فقط». أشياء كثيرة، حين ننظر إليها من هذا الجانب من الموت، تكتسب ثِقلًا ساحقًا. حين كان نيكولاي في الصف الثاني اقترحتُ أن نخرج لتناول الطعام في أول أيام عطلة الربيع. قال لي: «العطلة قصيرة، وعندي الكثير من الأمور، لا يمكن أن

أضيِّع حياتي في الأكل بالخارج». قلت: «لكن الحياة طويلة، ولدينا وقت لوجبة طيبة». فأجاب: «لا، لا يوجد في الحياة وقت كافٍ أبدًا».

قال نيكولاي: «لا يمكنكِ فعل ذلك. كل شيء يبدو مختلفًا إذا نظرتِ إليه مما بعد الزمن».

- معظم الأشياء، صححتُه تلقائيًّا.
- إذا كنتِ مُصرة أن تكوني دقيقة على نحوٍ مزعج.
- وهل «ما بعد الزمن» مصطلحٌ أصلًا؟
- أظن ذلك. فهناك الظهيرة وهناك ما بعد الظهيرة.
- وهناك كلمة وكلمة ختامية.
- وهناك حَشُّ العشب والمَحشَّة الثانية.
- وهناك حياة وحياة أُخرى.
- ولا واحدة من تلك الكلمات تبدو جذابة مثل ما بعد الزمن، ألا توافقين؟
- لكن هل أنت متأكد أنك تستعملها بشكل صحيح؟
- أوه، وما أهمية ذلك يا أمي؟ أي لحظة تأتي بعد الزمن هي ما بعد الزمن.
- هل نحن فيما بعد الزمن إذن؟
- أنا كذلك، لكن أنتِ لا.
- ولماذا أنا لا؟

- لأنكِ قلتِ إنكِ تعيشين في الأيام، فأنتِ ما زلتِ داخل الزمن. لا يمكنكِ أن تعيشي فيما بعد الزمن.

تذكرتُ امرأة ألمانية مُسنة، كانت مُعلِّمة نيكولاي المفضلة في الحضانة. طالما رأيتها أكثر النساء تفاؤلًا وكفاءة، هادئةً ومرحة وسط أطفال في الثالثة أو الرابعة من عمرهم، كلهم صاخبون ومُطالِبون. كانت قد مازحت يومًا بأن مساهمتها الوحيدة في أمريكا هي أنها تبنَّت عائلتنا في عيد الشكر، ذاك العيد الأمريكي.

قال نيكولاي: «لقد علَّمتني لعبة موريس تسعة رجال اللوحية».

قلت: «نعم. لقد وجدتُ اللوح منذ أيام».

كتبت معلمته في الحضانة من كاليفورنيا: «أتمنى لو أراه ثانية. حين تعودين، اتصلي بي من فضلكِ لنَبكي معًا. أنا حزينة جدًّا. كنتُ أظن أننا أعددناه ليعيش».

قال نيكولاي: «لقد أدت عملها على خير وجه. علَّمتني كيف أزرع، وكيف أصنع رقائق الجبن وتفاحًا مشويًّا».

- وعلَّمتك أيضًا تلك الأغنية التي أحببناها.

- أتقصدين أغنية الحمار الصغير؟

قلت: «نعم. أول مرة غنيتها في البيت، شعرتُ بدموع ثقيلة خلف جفوني».

لو كان عندي حمار صغير

لا يريد أن يمشي،

أتظن أنني سأضربه؟ أوه، لا، لا!

سأضعه في الحظيرة،

وأعطيه بعض الذرة.

أفضلُ حمارٍ صغير

وُلد يومًا!

قال نيكولاي: «ما أجهلني وما أسعدني فيما قبل الزمن».

- هل ما قبل الزمن مُصطلح؟

- لا يقل عما بعد الزمن.

الفصل الرابع عشر

العزاء

قلت: «صنعتُ كعكةً لعشية الميلاد».

سأل نيكولاي: «وهل نجحتِ؟».

قلت: «نصف نجاح. صنعتُ كعكة يابانية قطنية بالجبن. كعكة أنيقة المنظر، جبنية لكن ليست قطنية».

قال: «إذن أخفقتِ في النصف الآخر. الآن تفهمين إحباطي كخباز».

- نعم، لكن لا بأس. أحيانًا لا تأتي المسودة الأولى للقصة كما ينبغي.

- إلا أنكِ تنسين أنَّ الكعكة قصة بمسودة واحدة، لا مجال لمراجعتها.

قلت: «لكن ماذا عن إعادة كتابتها؟ سأحاول مرة أخرى. الخَبز لا يمكن أن يكون أصعب من الكتابة، ألا تظن؟».

- ما زلتِ لا تفهمين يا أمي. لا يمكنكِ أن تعودي لتخبزي الكعكة مرتين. كما لا يمكنكِ أن تطئي النهر نفسه مرتين.

كما أنَّ أحدًا منا لا يستطيع أن يعود ليعيد قياس المكونات التي صنعت الأيام والسنوات، أو ليكرر الخطوات بعنايةٍ أشد، آملاً أن يتخلص

من الأخطاء، وأن يتجنَّب أخطاء جديدة، بحيث تأخذ القصة مسارًا آخر؛ ويظل نيكولاي حيًّا.

قال: «ظننتُ أننا نتحدث عن الخَبز. فلا تقفزي قفزات بلا مبرر».

قلت: «لم تكن ثمة حاجة إلى قفزة أصلًا، إذ إنك كلَّما رفعتَ رأسك عن كتاب، أو التفتَّ في المطبخ، أو ملأتَ مزهريةً بالماء، اصطدمتَ بتلك الغيبة الهائلة».

قال: «هائلة؟ كم تجعلينني أعجز وأثقل حركةً بهذا الوصف».

قلت: «كم تلجأ للتكرار لتثبت فكرتك!».

قال: «أعرف. لكن كلمة «هائلة» كلمة مثقلة بالموت».

كتب أحد أصدقاء نيكولاي، متذكِّرًا، أنهم حين كانوا يقفون في دائرة يتحدثون، كان يقفز صعودًا وهبوطًا كأن في حذائه نوابض. وروت لي صديقة أخرى أنه حين كانوا يخرجون في نزهات، كان يقفز عاليًا ليقطف البرقوق البعيد عن متناول الآخرين. وكتبت أم زميل له تقول: «سيبقى في ذاكرتها دومًا الصبي الذي كان يركض مع رفاقه في شارعٍ مضاءٍ بأنوار برتقالية في ليلة خريفية. فكيف يُصنع نُصْبٌ من الجرانيت أو الرخام أو البرونز يجسِّد خفَّةً ورشاقةً محلِّقة في الفضاء؟».

قال نيكولاي: «أظن أنَّ كعكة الجبن القطنية غاية أعقل من النُّصب التذكاري».

قلتُ له إنَّ مفهوم النصب التذكاري جاء من كلمة لاتينية تعني التذكار، ومن فعل لاتيني آخر يعني «يتذكَّر». وقد بحثتُ عن أصلها، كما

بحثتُ عن أصل كلمات مثل «الذاكرة» و«الندب». كلمات كثيرة كان عليَّ أن أعيد تعلُّمها منذ رحيله.

- هل تحتاجين إلى نصبٍ لتتذكَّرينني؟ أفضِّل أن تتذكَّريني بقطعة من كعكة الجبن.
- هل لأنك خبَّاز ولست معماريًّا؟
- لأن كعكة الجبن فانية.
- آه. لم يسبق أن استخدمت كلمة فانٍ في كتابتي.
- هي خيرٌ من تلك الكلمة التي لا تملِّين من ترديدها: محتوم.
- إنهما صفتان مختلفتان.
- أنا أفضِّل عالمًا مصنوعًا من الفاني، لا من المحتوم.
- المحتوم يجعل الزمن أهونَ احتمالًا.
- والزمن لا معنى له من دون الفاني.
- حسنًا. يمكن أن يكون لكل منا رأيه.
- على الأقل، عِديني ألا تستخدمي كلمة مهيب أو نَصْبي مرة أخرى. أنتِ حقًّا بحاجة إلى شحذ مهاراتكِ مع الصفات.

قلت، مغيرةً الموضوع: «رأيتُ حلمًا الليلة الماضية. في حلمي كنتُ ذاهبةً لأصطحب والدك وجيه. من فندق يشبه الفندق الذي نزلنا فيه في لندن».

- هل كنتِ أنتِ من تقودين؟
- ركنتُ السيارة على مقربة من الفندق.

قال: «لا يمكنكِ القيادة في إنجلترا. أنتِ لا تعرفين القيادة على الجهة اليسرى».

قلت: «لقد كان حلمًا. عند مدخل الفندق، فجأة كنتَ تمشي بجانبي».

في حلمي كان نيكولاي يرتدي قميصه المقلَّم بالأزرق الذي يحبه. قال لي: «أمي، أنا جائع». وما إن سمعتُه حتى استيقظتُ. قبل أن ينفصل الواقع عن اللاواقع كما ينفصل الليل عن النهار، والظلمة عن الضوء، كنتُ أعيشُ ابتسامته وصوته مرارًا وتكرارًا في رأسي.

قال نيكولاي: «ليتني أستطيع أن أقول لكِ إني رأيتُ الحلم نفسه. عندها لبدا الأمر كأنه حدث حقًّا، أليس كذلك؟».

فكَّرتُ في عدة أشخاص حَكوا لي عن أحلامهم بالراحلين. غالبًا ما تُؤوَّل تلك الأحلام بوصفها إشارات من العالم الآخر. لكن الأحلام ليست سوى مقدِّمة لأيامٍ، وخاتمة لأيامٍ أخرى، تكتبها عقولُنا المرتبكة.

قلت: «سيكون ذلك مرعبًا. فالناس، ولكل منهم حياته المستقلَّة، لا ينبغي أن يلتقوا ككيانات مستقلَّة أيضًا في الأحلام».

- حتى لو كان أحدهم لم يَعد حيًّا؟

قلت: «هذا لا يغيِّر شيئًا في حياة مستقلَّة قد عيشت بالفعل».

قال نيكولاي: «لكن ذلك غير عادل إذن. كيف تعرفين إن كان أحدهم يريد أن يكون في حلمكِ؟».

قلت: «مثلما لا أعرف إن كنتَ تفضِّل أن تلعب الغمِّيضة معي في الليل بدلًا من أن تخبرني أنك جائع. للأسف، لا أعرف. لا يملك أحد خيارًا حين يقرر الآخرون أن يأسروا شخصًا في أحلامهم».

- إذن، في جوهر الأمر، الحلم ظلم يُلحق بمن يُحْلَم به، أليس كذلك؟

قلت: «أحيانًا هو ظلم يوقعه المرء على نفسه. أشخاص لا تريد أن تكون لك بهم أدنى صلة، يقتحمون أحلامك مع ذلك».

قال: «تمامًا مثل الخَبز إذن».

قلت: «كنتُ أظن أنَّ الخَبز هو نقيض الحلم. لديك وصفة دقيقة، كل شيء تحت السيطرة، وفي النهاية تنال النتيجة الصحيحة».

- وهل ضبطتِ كل شيء تمامًا عندما صنعتِ كعكة الجبن؟

قلت: «لا، لكن ذلك لأنني لستُ خبازة صغيرة بارعة مثلك».

قال: «تعبير سيء».

- ماذا؟

قال: «تقصدين خبازًا صينيًّا صغير الحجم؟ يجب أن تعرفي أنَّ أصدقائي وأنا لا نستخدم هذه الكلمة أبدًا».

قلت: «آه». لم يخطر ببالي أصلًا. كل ما خطر ببالي هو خباز بارع صغير كالفأر تشارلي في كتب ريتشارد سكاري.

حين كان نيكولاي صغيرًا، كنتُ مأخوذة بكتاب لريتشارد سكاري عنوانه: «ماذا يفعل الناس طوال اليوم؟». (What Do People Do All Day?) أذكر أنني، في إحدى المرات، كنت أشرب قهوة في لقاء رسمي مع عميدة في الجامعة التي كنت أُدرِّس فيها. لم أستطع فكَّ شيفرة كلماتها الملأى بالمعاني المبطَّنة، فاندفعتُ بلا تفكير أقول: «وماذا تفعلين أنتِ طوال اليوم؟».

قال نيكولاي: «لقد لاحظتُ أنكِ تحبين أن تسألي الناس عما يفعلونه لكسب رزقهم».

قلت: «لكسب رزقهم، نعم، لكن هذا مجرد حل وسط. ما أريد أن أسأله حقًّا هو: ماذا تفعلون طوال اليوم؟».

قال: «يا لها من فضولية... يا له من تدخُّل، بل من قلة ذوق».

فكَّرتُ إذا كانت الأيام هي حيث نعيش، فسأظل دومًا أرغب في أن أعرف كيف يعيش الناس أيامهم.

قال: «لِمَ؟».

- ألا ينتابك أحيانًا شعور بأن الآخرين يملكون أجوبةً لأسئلةٍ لا تملك لها جوابًا؟

قال: «لكن الآخرين قد ينظرون إليكِ ويفكرون في الشيء نفسه. ماذا لو سألتكِ: ماذا تفعلين طوال النهار؟».

قلت: «آه، الأشياء التي تعرفها؛ القراءة، الكتابة، الطهو، التحديق من النافذة. وأنت، ماذا تفعل طوال النهار؟».

قال: «آه، الأشياء التي لا تعرفينها. أحلم، أحلم، أفكِّر، أحلم».

- بماذا تحلم؟ وبماذا تفكر؟

- لن أبوح.

قلت: «حسنًا».

ساد بيننا الصمت. تذكرتُ حلم البارحة. وصفات قديمة لم أعد أطبخها لأنها كانت المفضلة لديه، أطباق جديدة ابتكرتها منذ رحيله. كان الأمر عسيرًا بما يكفي حين يبوح طفل بمعاناته ولا يملك والداه

سوى القليل لمواساته. لكنه يصير عجزًا مطبقًا حين لا يستطيع الوالدان فعل شيء إزاء جوع طفل.

قال: «حاذري. لا تبالغي في التأويل. لستُ جائعًا. لقد حلمتِ بذلك فحسب».

سألت: «هل ما زلتَ تعاني؟».

قال نيكولاي: «هذا سؤال أسوأ من «ماذا تفعل طوال النهار؟». تخيَّلي أن تستقبلي شخصًا قائلةً: مرحبًا، سعدتُ بلقائك. هل تعاني؟».

قلت: «أنت من يقول إنَّ علينا ألا نطرح أسئلة سخيفة. هل ما زلتَ تتألم؟».

ظل صامتًا لحظة، ثم قال: «يعتمد على كيف تستخدمين الكلمة».

- بحثتُ عن أصل الكلمة، فوجدت أنَّ أصلها يرجع للتحمُّل.
- إذن إن كنتِ تسألينني هل ما زال عليَّ أن أتحمَّل عبء العيش، فلا، لم أعدُ أتعذَّب.

قلت: «وماذا عليك أن تتحمل إذن؟».

قال: «الأشياء التي ترافقني دائمًا، بجسد أو من دونه».

أعدتُ ترتيب مزهرية الكوبية الذابلة على حافة النافذة. كنتُ أحيانًا حين أشعر بالاضطراب أمشي من غرفة إلى غرفة. كل غرفة ملآنة بالأشياء، لوحات طبيعة صامتة في بيته الجديد. حياة صامتة، لكنها ما زالت جزءًا من هذه الحياة. لسنوات كان يسألني: «إذا كنتِ تكتبين عن المعاناة وتفهمينها، فلماذا منحتِني الحياة؟». ولم أقدِّم له يومًا جوابًا كافيًا.

قال: «الآن نحن حزينان معًا. نحن بارعان في جعل بعضنا حزينًا».

قلت: «كنتُ أظن أني أجيد أكثر أن أجعلك غاضبًا».

قال: «صدقتِ. نحن نتشاجر كثيرًا، أليس كذلك؟».

كل الجدالات التي خضناها، حين أنظر إليها من هذا الجانب من الموت، كانت عن وعدٍ بالكاد استطاعت أُم أن تفي به، وعن أمنيةٍ كان الطفل يشك في أنها ستتحقق. كثيرًا ما كنتُ أقول له: الحياة صعبة لكن الأمور ستتحسن في النهاية ما دمنا صابرين. كان يقول: صبر، صبر... هل تظنين حقًّا أنَّ كل شيء سيكون أفضل يومًا ما، حين أكبر؟

قال: «لستُ غاضبًا منكِ بعد الآن».

- أعلم ذلك.

كل تلك العواصف كنت أظن أننا اجتزناها معًا. لكن ربما لا وجود لصحبة حقيقية حين يبقى بعض الألم عصيًّا على الفهم.

قلت: «أوه، نسيت. تعلمتُ شيئًا واحدًا في أثناء خبزي للكعكة. اكتشفتُ كيف أجعل ورق الزبدة ثابتًا في مكانه».

سأل: «كيف؟».

كنتُ أنا ونيكولاي في كل مرة نخبز كعكة، نُعاني في جعل ورق الزبدة منتصبًا في دائرة كاملة بينما يصبُّ هو الخليط.

فكرتُ لو بإمكاني أن أُريه. ثم قلت: «لن أقول».

قال: «هيا، هناك مليون شيء يستحق ألا يُقال، لكن ليس خدعة صغيرة في الخَبز».

فكرت أنَّ هناك مليون شيء يستحق أن نعيش من أجله، بما في ذلك خدعة صغيرة في الخَبز.

قال: «أنتِ نفسك لا تؤمنين بذلك».

قلت: «وماذا لو لم يكن علينا أن نؤمن بأي شيء؟».

ربما لا يتطلَّب العيش سوى قرارات.

- مثل قرارات رأس السنة؟ أليس الغرض منها أصلًا ألا تدوم؟

- لا.

- مثل العثور على إجابة، أو حل؟ أنتِ سيئة في تقديم الأجوبة، لكنني وجدتُ جوابي بالفعل.

قلت: «مثل أن نُعيد الزمن إلى وحداته: عامًا إلى أيام، يومًا إلى ساعات، ساعةً إلى دقائق».

قال: «لكن ألا يخطر ببالك أنَّ الزمن حين يُجزَّأ هكذا يتحوَّل إلى رمال متحركة؟».

قلت: «بلى، أنا مدركة لذلك تمامًا».

- ومع ذلك تعزمين على أن تواصلي العيش فوق الرمال المتحركة؟

قلت: «ما تسمِّيه أنتَ رمالًا متحركة هو واقعنا».

- واقعكِ وواقعي؟

- نعم، جيناتنا.

- ولماذا لا نعيش مثل سائر الناس، على أرض منبسطة صلبة قبل أن تُكتشف أنها كروية؟

قلت: «الآخرون يعيشون على أنواع أخرى من الرمال المتحركة».

- حقًّا؟

- لا أعلم، لكنني أحب أن أتخيَّل أنَّ الأمر كذلك.

قال: «لا أظن. فما الذي يكمن تحت الرمال المتحركة؟».

قلت: «وما الذي تحتها؟ لا أدري».

قال: «نحن لا نسقط في هاوية بلا سبب».

فكَّرت: «*ماذا لو أننا نستمر في المحاولة؟ ماذا لو أمكن تحويل الهاوية إلى موطن طبيعي؟ ماذا لو قبلنا المعاناة كما نقبل لون شعرنا أو لون أعيننا؟ ماذا لو، بعد أن عاش أحد الوالدين زمنًا مظلمًا كئيبًا، استطاع أن يُقنع طفله بأن ما نحتاج إليه ليس نورًا يقودنا إلى مكان ما، بل العزم على أن نكون في اللامكان، حتى لو كان ذلك أبدًا وأبدًا؟*».

قال: «وماذا بعد؟ أن أكتفي بعيوبي إلى الأبد؟».

قلت: «لا أحد كامل».

قال: «هذه عبارة قديمة. لا تعني لي شيئًا».

- الحياة غير كاملة، لكنها تعني شيئًا، أليس كذلك؟

- إنها جائزة ترضية. لكنني لا أعيش من أجل جوائز الترضية يا أمي العزيزة.

الفصل الخامس عشر

لحظات لا تتكرر

قلت: «إنه ذاك الوقت من السنة. أفكِّر في قراراتي للعام الجديد».

قال نيكولاي: «وهل تتذكرين قرارات العام الماضي، أو الذي قبله؟».

قلت: «إن عدتُ وبحثتُ عنها في دفتري».

- ها!

- لكنني ما زلت أعد قائمة.

قال: «دعيني أرى. ستخبزين الكثير من الكعك».

قلت: «وكيف عرفت؟».

قال: «لأني أعرف نضب خيالك. لو قلتِ ركوب الخيل، أو تخمير الجعة، أو تربية النحل، أو تأمل النجوم، لما خمَّنتُ».

- ألا يزعجك انشغالي بالخَبز؟

قال: «ماذا تظنين؟ الخَبز منطقتي أنا، والطبخ منطقتكِ أنتِ».

قلت: «لكنك تتعلَّم الطبخ أيضًا». وكنتُ شديدة الوعي بأننا معًا نستعمل صيغة الحاضر.

قال: «الخَبز هو تأملي».

قلت: «أعلم ذلك». كان يخبز كلما اضطرب مزاجه.

قال: «وماذا يعني لكِ الخَبز؟ لا يمكنكِ أن تتأمَّلي تأمُّلي».

قلت: «إنه استذكار».

قال: «لا تنسي أنَّ الخَبز لا يسمح بالمراجعة».

قلت: «لكن الحياكة تسمح».

- أستبدئين الحياكة أيضًا؟

حين كنتُ طفلة صغيرة، درَّبوني كل صيف على الحياكة بخيوط قديمة فقدت مرونتها. كنت أكره الخيط الصدئي اللون، خشن الملمس على ذراعيَّ المتعرِّقتين. وكنت أكره أن تفحص أمي عملي في نهاية اليوم. وكنت أكره، أكثر من كل شيء، أنني ما إن أنهي كرة الخيط حتى أُجبر على نقضها لأبدأ من جديد. لكنني لم أخبره بشيء من ذلك. أول مرة أكتشف أنني أجيد الحياكة أبدى إعجابًا.

قال: «فقط لأنك لا تبدين كالحائكات على الإطلاق».

- لِمَ لا؟

قال: «نحن الحائكين نجد الفرح والعزاء في التكرار. هل تستطيعين أن تكتبي الجملة نفسها مرة بعد مرة؟».

قلت: «ماذا لو أنَّ الحياة تتطلَّب قدرًا من التكرار؟ لا أستطيع أن أكتب الجملة نفسها أو القصة نفسها مرارًا، لكن ربما أستطيع أن أستخدم الحياكة لتلبية هذا الشرط».

قال: «على الأقل أنتِ أفضل في الحياكة منكِ في الخَبز. يمكن أن تحوكي وتنجزي شيئًا، حتى إن لم تستمتعي بالعملية كما تنصح أيٌّ من كتب المساعدة الذاتية».

- شكرًا على ثنائك النادر.

قال: «هل تذكرين الأخطبوط الذي حِكتِه؟».

كدت أنسى. في المرحلة الإعدادية، من أجل سانتا السري، طلب نيكولاي أن أحوك له أخطبوطًا. قال: «يومين». قلت: «مستحيل». أصرَّ قائلًا: «بل ممكن». وبنهاية اليومين كنت قد أهديته أخطبوطًا بجسد أبيض كالأوبال، وأذرع زرقاء فاتحة، وعيون خرزية لم يتطابق لونها ولا حجمها. وفي اليوم التالي عاد إلى البيت مطالبًا بسبعة أخطبوطات أخرى لأصدقائه.

قال الآن: «أُخْبُوط. أكره حين يقول الناس أخطبوطًا».

قلت: «حسنًا، أُخْبُوط. من الناحية الاشتقاقية، كلانا على حق».

قال: «لكن أُخْبُوط تبدو واسعة المعرفة أكثر. إذن أنتِ تفكِّرين بالعودة إلى الحياكة؟».

- لقد حكتُ قليلًا بالفعل.

- متى؟

قلت: «منذ وقت ليس ببعيد». لأيامٍ وأسابيع بعد وفاة نيكولاي، قضيت معظم وقتي في غرفته: أحوك، أفكُّ، أحوك، ثم أفكُّ من جديد.

- أي خيط استخدمتِ؟

- الأصفر الكناري.

- ماذا صنعتِ؟

- لا شيء.

- وماذا كنتِ تنوين أن تحوكي قبل أن ينتهي الأمر باللاشيء؟

قلت: «فكرت أن أصنع وشاحًا كما فعلتَ أنت، لكني ظللت أُخطئ في العد وأبدأ من جديد».

كان نيكولاي قد حاك عدة أوشحة. ارتداها في التيبت حين زارها في الصيف، وكان يخطط أن يرتديها هذا الشتاء أيضًا.

قال: «أحيانًا يمكنك أن تُعيد وتُصحِّح كما تشاء، ومع ذلك لا يخرج العمل كما ينبغي. وذلك ما يجعل الحياكة أسوأ من الخَبز أحيانًا».

قلت: «لكن أوشحتك كلها خرجت جميلة».

قال: «هذا لأنني أجيد العد».

قلت: «ألم أساعدك؟ كنتَ تصرخ بأرقام عشوائية لتظل في ذاكرتي. ما زالت عندي سلاسل من الأرقام مخزَّنة في هاتفي».

قال: «لا أظن أنكِ بارعة بما يكفي لتجعلي تلك الأرقام ذات جدوى».

قلت: «هل عليَّ إذن أن أضع الحياكة في قائمة قراراتي للعام الجديد؟».

قال: «أقول لكِ إن جمعتِ بين الحياكة والخبز، فسيبدو الأمر مفرطًا في العاطفية. أنا أتوقع منكِ أكثر من ذلك».

قلت: «ماذا عن الموسيقى؟».

قال: «يا إلهي، أنتِ كبيرة على أن تتعلمي المقرونة!».

قلت: «ليس المقرونة، بل البيانو».

- حتى تتمكني ذات يوم من عزف مقطوعة «من أجل إليزة»؟

كان هناك وقت في طفولتي حين كان جرس بابنا وجرس بابَي جارَين لنا يعزفون مقطوعة «من أجل إليزة» بأبشع أداء، أشبه ببطاقات التهنئة الموسيقية القديمة حين توشك بطاريتها على النفاد. قلت: «لا أطيق تلك المقطوعة».

قال: «أعرف. كثير من طلاب البيانو يُضطرون إلى عزفها، فلنأمل أن يثنيكِ ذلك عن فكرة البيانو».

- ربما أعود إلى الأكورديون.

قال: «فكرة جيدة. يمكنك حتى أن تذهبي إلى حانة لتلعبي هناك. في جو صاخب ومبهج. مع بعض من أحمر الخدود ولمسة بوهيمية».

قلت: «ما أشد حرصك على معارضة كل مسعى لي».

قال: «أنا فقط واقعي ومسؤول، حتى لا تفشلي بحلول أول عشرة أيام من العام الجديد».

قلت: «اشتريت لنفسي قاموسًا، وقررت أن أدرس فيه كل يوم».

- ألأنكِ تحتاجين إلى صقل مفرداتكِ لتصلي إلى مستواي؟

قرأت له «قاموس اللغة الإنجليزية» (A Dictionary of the English Language) لساموبل جونسون.

- حسنًا.

قلت: «تقول «حسنًا» لأنك لا تعرف من هو الدكتور جونسون».

قال: «دكتور مَن؟ آه، لا بأس، لا أعرف».

ومع ذلك لم تكن ثمة متعة في أن أحرز تفوقًا صغيرًا عليه. كانت هناك أشياء كثيرة تمنَّيت أن يتعرَّف إليها ويحبها يومًا ما. قبل أسبوع من موته أخبرني أنه يتطلَّع إلى دراسة مسرحية «ماكبث» (Macbeth) بالإنجليزية. وكنت بين الحين والآخر أحثه على أن يمنح رواية «الحرب والسلم» (War and Peace) محاولة أخرى، فقد قرأ مئة صفحة في الصف السابع، ثم أعلن أنه لم يفهم شيئًا. لاحقًا أدركتُ أنه لم يكن يعلم أنَّ الحوارات المكتوبة بالفرنسية كانت مترجمة إلى الإنجليزية في الحواشي السفلية. وكان قد احتجَّ قائلًا: «ومن يقرأ الحواشي حين يكون الكتاب ضخمًا أصلًا؟». وقد قرأ أحد أصدقائه قصيدة لوالاس ستيفنز Wallace Stevens في تأبين نيكولاي، لكن ما أعاد إليَّ ذكراه لم يكن قصيدة واحدة، بل كل قصائده، ثمرة عمر كامل، فالعقل الذي لا يرى سبيلًا ولا اتجاهًا يفرُّ به من اليأس، يمكن أن يتمدد مع ذلك. ومن يدري؟ لعل التمدد يجعل اليأس محتملًا يومًا ما. تمنَّيت لو كان بوسعي أن أترك على مكتبه بعض الكتب، ومنها مجموعة لوالاس ستيفنز.

قال: «لا تتمني. فالتمني لا يجلب سوى جراحٍ للقلب».

تساءلت: «وما الضرر في بضع دقائق أضيعها في التمني، إذا كان الجرح الأعمق سيظل مفتوحًا، ليلًا نهارًا؟».

قال: «إذن ابحثي لكِ عما يشغلكِ؛ فالتمني ليس وسيلة صالحة لتشتيت نفسكِ».

قرأتُ له اقتباسًا لماريان مور: «إذا لم يفتنا شيء أو يمدنا بالقوة (ونحن نتغذى ونستنشق الهواء العليل) فعلينا أن نقول: «ليس الآن، بل

لاحقًا، وألا نذبل باليأس»». كثيرًا ما كنت أعود إلى هذا القول وأردده لنفسي: «ليس الآن، بل لاحقًا».

قال نيكولاي: «أنا لا أذبل باليأس أبدًا، إن لم تلاحظي».

قلت: «بالطبع لاحظت».

كان فرحه وألمه، وكلاهما ليس بنغمة خافتة، يمنعانه من الانكسار. غير أني فكرت: «*ماذا لو كان الانكسار نفسه جسرًا للعبور إلى ذلك اللاحق عند مور؟*».

قال: «لا وجود للاحق. فبعض الناس لا يملكون إلا الآن، والآن، والآن، والآن».

قلت: «أخبرني بذلك». لقد مرت ثلاثة أشهر على موته بالتمام والكمال. تغيَّرت الفصول، وتبدَّلت معها كل الكائنات كما قُدر لها أن تتبدَّل. إنها لاحقًا ولاحقًا ولاحقًا بالنسبة لها، عاجزةً عن تثبيت اللحظة الراهنة للأبد. صديقة عزيزة تقول: «نحن لا نحصي الأيام والأسابيع والأشهر بهذه الحدة إلا لسببين: بعد ولادة طفل، أو بعد وفاة حبيب. ثلاثة أشهر تبدو بطول الدهر، وبِقِصر اللحظة الواحدة، حين يكون كل ما نملكه هو الآن، والآن، والآن، والآن». وعليَّ أن أقول لصديقتي إن ثمة فرقًا بين الحياة والموت. فالمولود ينمو ساعةً فساعةً، ويومًا فيومًا، وأسبوعًا فأسبوعًا. موت طفلٍ لا يكبر دقيقةً واحدة.

قال نيكولاي: «هل يُعَدُّ هذا نوعًا من التذمُّر؟».

- ماذا؟

- عودتكِ إلى أفكار عديمة الجدوى.

قلت بحدَّة: «عديمة الجدوى في نظر مَن؟».

قال: «أحياناً تبدين مثلي. وهذا ليس على طريقة الأمهات إطلاقًا».

قلت: «وأنتَ أحيانًا تبدو مثلي».

قال: «يا للرعب! لا طفل يطيق أن يكتشف أثرًا من والديه في نفسه».

سألت: «حتى لو كان أثرًا حسنًا؟».

قال: «حتى لو جلب معه السيئ أيضًا؟». كان نيكولاي قد علَّق أكثر من مرة أنه أخذ الجينات العلمية والرياضية عن أبيه، والموهبة اللغوية وأخلاقيات العمل عن أمه، والموسيقى والرياضة وحس الدعابة من نفسه، والإعجاب من أخيه الصغير، غير أنه نادرًا ما كان ينظر إلى نفسه بهذه الصورة. فلم تكن القناعة كلمةً في قاموسه.

قلت: «أحيانًا، فقط أحيانًا، يخطر لي أنَّ عندك وجه حق حين تسأل: لماذا يمنح الآباء أبناءهم حياة؟».

- ولماذا يمنحونها على أي حال؟

قلت: «أملٌ أعمى، أو ظنٌّ واهم».

- ها أنتِ تتذمَّرين الآن.

- لا، هذا ليس تذمُّرًا. وأنا أيضًا لا أتذمَّرُ، إن لم تكن قد لاحظت.

قال: «حسنًا، أعترف لكِ بذلك».

غير أني فكرت: «*ماذا لو كان التذمُّر بالذات هو ما يحتاج إليه أولئك الذين لا يتذمَّرون؟ فلا يقتل أحد نفسه وهو يتذمَّر*».

قال: «أنصحكِ أن تتمسَّكي بأي فضيلة أو رذيلة لا يمكنكِ تغييرها. فإن كنتِ طائرًا مهاجرًا فلن تستطيعي أن تكوني بلا أجنحة. وإن كنتِ طائرًا بلا أجنحة فلن تغادري نيوزيلندا».

قلت: «أو أستراليا؟».

- أي جزيرة كانت.

- لم نزُر أستراليا معًا قط. أتذكر روزي؟

كبرت روزي في مزرعة أسترالية، وزارتنا وهي في الخامسة. كان جيه. في السادسة، ونيكولاي في التاسعة. يوم رحيلها، وهي تصعد الممر أمام بيتنا القديم، التفتت بعينين دامعتين ولوَّحت للصبيين. صاحت: «تعالوا زوروني قريبًا. لا تنتظروا حتى نكبر».

- لا يمكنكِ أن تعودي إلى كل ذكرى صغيرة لتبكي عليها يا أمي.

- وكيف عرفت أنني أبكي؟

- لأن روزي تمثِّل جوهرَ عدمِ دوام ذلك الزمن الجميل.

قلت: «جوهر... أتعلم أنَّ أصل الكلمة مشترك مع كوينتوس؟».

كان كوينتوس قد انضم إلى بيتنا وهو ابن تسعة أسابيع. وكان نيكولاي هو مَن سمى الكلب «الخامس» باللاتينية، بعد أفراد العائلة الأربعة.

لم يعلِّق نيكولاي. تُراه افتقد كوينتوس؟ قال: «لا يمكنكِ أن تطئي النهر نفسه مرتين».

قلت: «أحيانًا تكفي مرة واحدة لتكون بالغة الصعوبة. وأنا أُعجب بك لأنك فعلت ذلك، وقد فعلته بأجمل مما يفعل كثيرون أعرفهم».

- أوه يا أمي، لا تجعلي الأمر يبدو كأنه مرثية.

فكَّرت: «لا، *ليست مرثية. فلا ينبغي لوالدٍ أن يكتب مرثية لابنه*».

قال: «لا تكوني حزينة هكذا. لا تستسلمي للتذمُّر».

قلت: «هل أقرأ لك قصيدة؟».

- إن كان ذلك يخفف عنكِ.

فقرأت له قصيدة لوالاس ستيفنز:

هذه عُزلةُ الشلَّالات

لم يشعر قط مرتين بالشعور نفسه إزاء النهر المملوء بالقطرات،

الذي ظل يجري، ليس بالطريقة نفسها مرتين،

يجري عبر أمكنة كثيرة، كأنه ساكن في واحدٍ منها،

ثابت مثل بحيرة يرفرف فوقها البط البري،

مُحدثًا تموجات في انعكاساته المشتركة، أشبه بأفكار جبال مونادنُك.

بدا كأن ثمة نداءً لم يُنطَق به.

كان هناك الكثير مما بدا حقيقيًّا، وهو في الحقيقة لا شيء.

لقد أراد أن يعيش الشعور نفسه مرارًا وتكرارًا.

لقد أراد أن يستمد النهر في الجريان بالطريقة نفسها،
أن يظل يجري بلا انقطاع. أراد أن يمشي بمحاذاته،

تحت أشجار الجميز، في ضوء قمرٍ مسمَّرٍ في السماء.
أراد أن يتوقف قلبه عن الخفقان، وأن يستريح عقله
في إدراكٍ دائم، بلا بط بري،
ولا جبالٍ ليست جبالًا، فقط ليعرف كيف يكون الأمر،
فقط ليختبر كيف يكون الإحساس وقد تَحرر من
الانهيار،
أن يكون رجلًا برونزيًّا يتنفس تحت لازوردٍ عتيق،
بلا اهتزازات المجرَّات المارة جيئةً وذهابًا،
يتنفَّس أنفاسه البرونزية في المركز الأزرق للزمن.

الفصل السادس عشر

الأجوبة لا تحلِّق في الهواء

قلت: «لقد عدتُ إلى شكسبير».

فقال نيكولاي: «لم أدرِ أنكِ توقَّفتِ».

ولم يكن ليعرف. قبل أكثر من عام، في اليوم التالي للانتخابات الرئاسية، أخبرته أنني سأقرأ كل صباح أعمال شكسبير قبل أن أعد لهما الإفطار، وأنني سأقرأ مسرحياته بالترتيب الزمني، مرة أو مرتين، أو بقدر ما يسمح به عمر أربع سنوات. توقفتُ صباح اليوم التالي لوفاة نيكولاي. وكان صباحنا الأخير معًا، ما زلت أذكر المجلَّد الضخم مفتوحًا على مائدة الطعام حين خرج من غرفته. أذكر كل كلمة تبادلناها حتى نزل من سيارتي قرب المدرسة.

سأل: «كل كلمة؟».

- نعم.

- وكيف يمكنكِ أن تكوني واثقة؟

لأن ثماني ساعاتٍ من الشك قد مرَّت، كنتُ خلالها أُعيد ذلك الصباح لحظةً بلحظة، لكنني لم أقل ذلك له. قلت: «هل تذكر حين كنا في أيرلندا، ووبَّختني لأنني طلبتُ الطعام بلهجة النادلة نفسها؟ ظننتَ أنني أسخر منها».

قال نيكولاي: «هذا كلام لا صلة له بما قبله. قد أصدِّق أنكِ تتذكرين بعض ما قلناه لبعضنا، لكن كل شيء؟ كل كلمة؟».

قلت: «حين بلغتُ العاشرة، قطعتُ على نفسي عهدًا أن أحفظ من القصائد أكثر مما سيقرأه أي شخص أعرفه في حياته. وظللتُ على هذه العادة حتى بلغتُ العشرينيات».

قال: «نحن الآن في محادثتين متوازيتين».

- ما أحاول أن أشرحه هو هذا: بعض الناس يعيشون بالصور، وبعضهم بالأصوات. أما أنا، فبالكلمات. الكلمات التي تُقال لي. الكلمات التي لم تُوجَّه إليَّ لكني التقطتها على أي حال. الكلمات المكتوبة. الكلمات التي تصنع معنى والكلمات التي تصنع اللامعنى.

- إذن دماغكِ مثل ورق الذباب للكلمات.

- يا إلهي، ليتك لم تقل ذلك. الآن سأظل أشعر بالانزعاج من دماغي.

قال: «LOL».

لم أتكلم. رغم المسافة بيننا كنتُ ما زلت أسمعه. حين بدأ لأول مرة باستخدام مصطلحات الإنترنت، كنتُ لوقت طويل أظن أنَّ LOL تعني Lots of Love (الكثير من الحب)، وكنتُ أستبقيها في قلبي حين يقولها

لي. وحين انكشف سوء الفهم هذا، كان نيكولاي وجيه. يستمتعان كثيرًا بالسخرية من سذاجتي.

قال نيكولاي: «هل تتذكرين أوراق الذباب التي رأيناها في القصر الصيفي؟».

كان ذلك في صباح ملبَّد بالدخان قبل أكثر من عام بقليل، حين ذهبنا إلى القصر الصيفي. كانت الشمس قرصًا برتقاليًّا معدنيًّا بجوار برجٍ شاهق حين غادرنا الفندق. ومن هناك كنتُ أستطيع أن أستعيد مسار اليوم كله: التجديف، والمشي، ولعب ألعاب الكلمات، وعد أوراق الذباب حول البحيرة، حتى وصلنا إلى محادثة مع سائق سيارة أجرة شرح لي مطوَّلًا ما الذي يجب أن يعنيه أن أعيش في أمريكا، وكيف عليَّ أن أُربي أولادي ذوي الجذور الصينية. فكرتُ حينها: «*أناس كثيرون جاهزون ليقدموا خبراتهم فيما لا يعرفون عنه شيئًا، كسياراتٍ كثيرة تكتظُّ في الزحام*».

قال نيكولاي: «أتذكَّر ذلك. كنتُ أتنصَّت على محادثتكِ. وكنتُ أشعر بالأسى من أجلكِ».

قلت: «نيكولاي كان بارعًا في التنصت. والتنصت كان جريمة في الماضي».

قال: «أعرف. لقد حضرتُ محاضرتكِ عن التنصت أكثر من مرة. كتابة الرواية هي التنصت على قلوب شخصياتكِ».

خطر لي، حين قال ذلك، أنني لن ألقي محاضرة أخرى عن التنصت.

- لِمَ لا؟

قلت: «لا يمكنك أن تحمل كل شيء من حياة إلى أخرى».

قال: «لكن لماذا تتركين الأشياء الطيبة وراءكِ؟ لقد أحببتُ أن أسمعكِ تتحدثين عن التنصت».

- وهذا أدعى لأن أتركها معك، كما أرسلتك يومًا بوشاحي الحريري باللونين الأزرق والأصفر المستوحى من لوحة «ليلة النجوم» لفان جوخ.

كان وشاحي المفضَّل، وكان المفضَّل لديه أيضًا.

قال: «الاستماع خلسة... فعل سرقة. أتعرفين أنني الآن، لو شئت، أستطيع أن أمارسه بإتقان أكبر؟».

فكَّرت: «*لا شك في ذلك*». فقلت له: «متى آخر مرة مارستَ هذا الفعل؟».

- في ذلك الغداء مع صديقتكِ، أليس، تذكرين؟

لم أكن بحاجة إلى سؤاله لأعرف أنَّ تلك كانت المرة الأخيرة. في ذلك اليوم كانت رواية «آمال عظيمة» (Great Expectations) مفتوحة أمامه، لكن حين بدأتُ أنا وصديقتي نختلف، لم يستطع أن يخفي ابتسامته. قلت: «عمَّ كنا نتجادل؟».

- سألتكِ صديقتك عمَّا تتمنين أن تكون عليه روايتكِ في خيالكِ. فقلتِ إنَّ بطلتها تعيش أطول من الجميع، فهي إذن رواية عن أطيب أشكال الانتقام. فقالت لكِ إن ذلك يبدو قاسيًا، فأجبتِ أنه لا قسوة فيها، فالشخصية لم تفعل شيئًا جارحًا سوى أن تستمر في العيش.

عندها التفتنا إليه معًا، علمنا أنه كان يتنصت. سألته صديقتي، وهي تعرض عليه تعريف كلمة انتقام: أن تثأر بالمعاقبة، أن تُلحق الأذى ردًّا على أذى. فأكد أنه نعم، أي انتقام لا بد أن يكون قاسيًا.

قلت: «ذاكرتك جيدة».

قال: «إذا كان لكِ أن تفاخري بذاكرتكِ، فلمَ لا أفعل أنا أيضًا؟».

أشياء تذكَّرناها معًا، وأشياء تذكَّرناها على نحو مختلف، وأشياء تذكَّرها كل واحد منا منفردًا. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم أخذته وصديقه إلى مبنى إمباير ستيت وسط عاصفة. جريا حول منصة المشاهدة تحت المطر المنهمر، بينما التقطتُ صورة للمدينة قبل أن تضيء أضواء المساء شوارعها. كان الأفق مثقلًا بالرماد، والمدينة رمادية بمبانيها الخرسانية، إلا من الهرم الذهبي على قمة مبنى نيويورك لايف. قلت: «هلا غيَّرنا الموضوع؟ فأنا أستطيع أن أتذكَّر وأتذكَّر وأبكي وأتذكَّر».

قال: «أنتِ من بدأت كل هذه المحادثة عن التقاط كل كلمة بورق ذاكرة لاصق».

- صحيح، أليس كذلك؟ لكن هل يمسك ورق الذاكرة بالكلمات التي لم تُقَل بعد؟
- مثل الشرائط اللاصقة تصطاد ذباب العام المقبل قبل أن يولد؟ أم كقول الملكة البيضاء إنَّ الذاكرة تعمل في الاتجاهين؟

قلت: «آه، لقد نسيت ادعاء الملكة البيضاء».

- إن كنتِ وأنا قادرَين على الحديث، فلا شيء مستحيل.

ومع ذلك، فكَّرتُ أنه سيأتي يوم يتساءل فيه الناس عن هذه الأحاديث بيني وبينه: سيقول بعضهم جنون، أو تديُّن، أو كلاهما معًا.

سأل: «أهذا حقًّا ما يقلقكِ؟».

- لا.

- فلماذا تضيعين ثانيةً في التفكير فيه إذن؟

قلتُ: «الذهن أيضًا يلتقط خاطرًا هنا وهناك كما تفعل أوراق الذباب. ثم...».

- ثم ماذا؟

- لا شيء.

قال: «لا يمكنكِ أن تقطعي الجملة في منتصفها. على الأقل تابعي التفكير حتى النهاية كي أعلم».

فكَّرتُ: «ثمة يوم قد أُضطر فيه *لمواجهة سؤال الحماية*».

- حماية نفسكِ؟

قلت: «لا».

- أنا؟

- نعم.

قال: «أنا؟ أنا؟ أمي، تعلمين أنَّ ذلك يجب أن يكون آخر ما يقلقكِ. هل أحتاج إلى حماية أحد الآن؟ لا، لا، لا. يقول الناس هذا عن الموتى، إنهم بحاجة إلى الحماية، فقط لأنهم هم أنفسهم يبحثون عن عذرٍ لجبنهم».

- كيف ذلك؟

- لأنهم لا يعرفون ما الذي يريده الموتى، ولأنهم يخافون من أن يعرفوا.

- إنهم يخافون أيضًا من ألا يعرفوا.

- وأنتِ؟

- من المعرفة أم من الجهل؟ لستُ خائفة من المعرفة.

- إذن هل أنتِ خائفة من الجهل؟

قلت: «نعم. أحيانًا».

- يمكنكِ أن تسأليني.

فكَّرتُ أنَّ ذلك كان خوفي الحقيقي: «*أي سؤال أطرحه، عليَّ أن أجيب عليه نيابة عنه. كان العالَم الذي نتشاركه محدودًا، حتى وإن لم تكن كلماتنا كذلك*».

سأل: «وماذا لو فاجأتُكِ بإجابة لم تخطر ببالكِ؟».

- هل نجرب؟

قال: «فقط لا تسألي أسئلة سخيفة. مثل: «ماذا أكلت على الفطور؟ أو هل تندم على ما فعلت؟»».

- هل تفتقد كونك حيًّا؟

تذكرتُ معرض العلوم حين كان في الصف الثالث. أحد الآباء نادانا من آخر القاعة: ماذا تفعل هناك يا نيكولاي؟ وهو واقف بجانب لوحته بدا عليه الارتباك وقال: أنا... اممم... أعيش.

قال: «لقد نسيت ذلك. لكنه يثبت وجهة نظري: لا تطرحي أسئلة بديهية».

هل هناك ندم في عالَمه الآن؟ أو حنين؟ إذا كانت الإجابات بديهية فلم أكن أعرفها. لم يخطر لي أن أطرحها. أكان ينبغي أن يخطر لي أنها أسئلة مشروعة؟

قال: «حمدًا لله أنكِ جنَّبتينا نحن الاثنين تلك الأسئلة. فما الذي تريدين أن تسأليه إذن؟».

أخبرتُه عن لقاء لنا مع أم أخرى فقدت ابنها قبل ست سنوات منتحرًا. كانت امرأة ذات قناعات راسخة، إحداها أنَّ ابنها ونيكولاي قد التقيا بالفعل في السماء، وأنهما أرادا لنا ولها أن نلتقي في هذه الحياة.

قال: «يا إلهي. أهذا ما كنتِ تريدين أن تسأليه؟ إن كنتُ قد ذهبتُ إلى السماء وتعرَّفت على أصدقاء لهم خلفيات متشابهة -ليست ثقافية ولا عِرقية ولا اقتصادية- ما هو الوصف المناسب هنا؟».

قلت: «رجاءً كُن جادًّا واحترم من أين يأتي الناس».

قال: «نعم، نعم، نعم. ما دمتِ لا تتخيَّلين لي سماءً».

قرأت إحدى صديقات نيكولاي قصيدة في تأبينه انتهت بمقطع: «أنا مُلحدة/لكن إن كان هناك من يستطيع أن يغيِّر ذلك/فهو أنت يا نيكولاي». أخبرته عن القصيدة.

قال: «لا أريد أن أغيَّر أحدًا. لا أريد أن يتغيَّر أحد بسببي».

- عذرًا ولكن ذلك ليس بيدك لتقرره.

- حسنًا. لكن عليكِ أن تعرفي أنها كانت فقط تكتب قصيدة. تمامًا كما تكتبين أنتِ هنا قصصًا.

- نعم، لكن القصائد والقصص تحاول أن تقول ما لا يمكن قوله.

- أنتِ دائمًا تقولين إنَّ الكلمات مُقصِّرة.

- حقًّا الكلمات مُقصِّرة، لكن أحيانًا يمكن لظلالها أن تبلغ ما لا يُقال.

- الكلمات ليست لها ظلال يا أمي. هي تعيش على الصفحة، في عالم ثنائي الأبعاد.

- ومع ذلك، نحن نبحث عن عمق في الكلمات عندما لا نجده في العالم ثلاثي الأبعاد، أليس كذلك؟

قال: «أأنتِ التي تبحثين؟ تعنين هذا؟ أنا لا أبحث عن شيء الآن».

ومع ذلك، كان قد دللني في هذا العالم الذي صنعناه من كلمات.

قلت له: «ما أردتُ أن أسألك عنه هو: إلى متى يمكن أن تستمر محادثتنا؟».

- يمكن؟ كنتُ أظن أنَّ الأمر لكِ أن تقرريه. لست أنا مَن جعل هذا يحدث، بل أنتِ.

- صحيح، أليس ذلك؟

- إذن السؤال موجَّه لنفسكِ. إلى متى تريدين لهذه المحادثة أن تستمر؟

غدًا، بعد غد، للأبد، إلى أبد الآبدين، لكن أيًّا من هذه الإجابات ليس صحيحًا. سيأتي وقت كان ينبغي أن يبلغ فيه السابعة عشرة، الثامنة عشرة، العشرين، السادسة والعشرين، الثلاثين، السادسة والثلاثين. أيام كان يجب أن يعيشها ولن يعيشها أبدًا. سيكون خطأً أن أُبقيه دائمًا عند السادسة عشرة. الآن، لاحقًا، ثم، ثم.

قال نيكولاي: «أأنتِ تكتبين الروايات؟».

- نعم.

- إذن يمكنكِ أن تختلقي ما تشائين.

- لا يختلق المرء شيئًا في الرواية. عليه أن يعيش فيها كما عليه أن يعيش هنا.

- هنا هو حيث أنتِ، لا حيث أنا. أنا في الرواية. أنا رواية الآن.

- إذن حيث أنتَ هو هناك، وهو أيضًا حيث أعيش أنا.

قال: «ألن يكون ذلك مُربِكًا؟».

قلت: «هل أخبرتك أنني عدتُ إلى الرواية؟».

- تلك التي حدثتكِ عنها عندما كنا نتناول الغداء في ذلك اليوم؟

- نعم.

- عالم آخر عليكِ أن تعيشي فيه.

- نعم.

- ذلك كتاب لن أستطيع قراءته.

- ذلك كتاب لستَ مضطرًّا إلى قراءته.

في الرواية، امرأة فقدت طفلها منتحرًا وهي في الرابعة والأربعين. ما علمت أنَّ الشيء نفسه سيحدث لي وأنا في الرابعة والأربعين. هناك أشياء كثيرة لم أعلمها حين كنت أعمل على الرواية.

قال نيكولاي: «آه، الآن سيلومني الناس. عندما تنشرين الرواية سيظنون أنكِ أعطيتِ تلك القصة للمرأة بسببي».

- فليظن الناس ما يشاؤون.

- ربما كنتِ تكتبين الرواية لتُعِدِّي نفسكِ.

فكَّرتُ أني كنتُ أكتب لأُعِدَّ نفسي طوال مسيرتي.

قلت: «برأيك، إلى أين تتجه هذه المحادثة؟».

قال: «أنتِ تسألين إلى متى تستمر، وأين تمضي. الأسئلة التي تطرحينها هي الأسئلة التي يُفترض أن تكون لديكِ أجوبة لها».

الزمن يسير في اتجاه واحد فقط. أما العقل فيذهب في اتجاهات شتى. كم يُسمح لنا أن نبتعد على طريق باتجاه واحد قبل أن يُقال إننا تائهون؟ وإذا لم يكن المرء تائهًا، فهل يمكن أن يُوجَد من جديد؟

قلت: «الأجوبة لا تحلِّق في الهواء مثل الكلمات».

قال: «والأسئلة أيضًا، أليست كذلك؟».

قلت: «بلى، هي كذلك».

أشياء لا تنقذها الكلمات

تواجه إيون لي في هذه الرواية أعماق الفقد وهي تتخيَّل حوارًا بين أُم وطفل في عالم خارج الزمن. كُتب النص في الأشهر التي أعقبت فقدانها طفلها البالغ من العمر السادسة عشر بالانتحار، ليجتاز المسافة الحرجة بين الحياة والموت، حيث تتحرر الأم والابن من الصور والقصص المألوفة. هذه الحوارات العميقة ترسم ملامح الحب وتعقيد العلاقة الإنسانية.

تكتب لي في الرواية: "كان لي وَهمٌ وحيد، تمسكتُ به بكل ما أملك: لقد منحنا نيكولاي حياةً من لحم ودم، وأنا أعيد منحه إياها هذه المرة بالكلمات".

إنها رواية مكتوبة بأصالة ودقة واتزان، تفيض بحميمية مؤلمة وحب جارف لا يفتر.

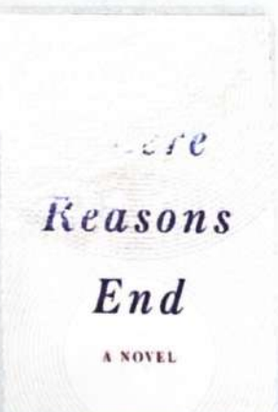

غلاف: محمود هشام

9 789779 926612

عصير الكتب

aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com